
روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
أسطورة النبات
15

مقدمة

س ـ ما اسمك ؟

ج ـ د . (رفعت إسماعيل) .

س ـ سنك وعملك ؟

ج ـ أقترب من السبعين من العمر ، أستاذ طب متقاعد وطارد أشباح هاو ..

س ـ حالتك الاجتماعية ؟

ج ـ أعزب بالطبع .. فلا توجد زوجة تتحمل حياتى ، وحتى لو وُجدت .. فقد رحل القطار مبتعدًا عن محطتى منذ أعوام ..

س ـ ومتى تكف عن سرد القصص الكابوسية ؟

ج ـ حين يحين أجلى ..

س ـ وعم ستحدثنا اليوم ؟

ج ـ كنت أنوى أن أستكمل قصة (النافاراى) أو أحكى حلقة أخرى من رحلات (سالم وسلمى) أو أثرثر عن (نوسفيراتو) .. ثم وجدت أننى راغب فى سرد قصتى مع نبات الـ (موكاسا) ، فهى قصة لا بأس بها ..

س ـ لماذا اخترتها بالذات ؟

ج ـ لأننى كنت ـ فى المغامرة السابقة ـ مع رجل الثلوج فى (التبت) .. ولهذا آثرت أن أحكى قصة بيئية دافئة بعيدًا عن الثلوج وانهيارات الجبال ..

س ـ متى حدثت هذه القصة ؟

ج ـ لا أذكر .. ربما كان ذلك فى عام ١٩٦٨ وربما لا .. بالتأكيد كنت قد جاوزت الأربعين ، وبالتأكيد لم أكن مرتبطًا بـ (هويدا) .. إذن هى حدثت قبل لقائى مع الفرعون (أخيروم) أو بعد لقائى مع رجل الثلوج ..

س ـ ألا تحتفظ بمذكرات ؟

ج ـ ولماذا أفعل ؟.. إن كل ذكرياتى من الطراز الذى لا يُنسى .. ويظل محفورًا ـ كالنقوش ـ فى تعاريج الدماغ .. ولطالما حاولت أن أنسى .. لكن الذكريات الباسمة فقط هى التى تُمحى ......

س ـ هل لديك أقوال أخرى ؟

ج ـ نعم .. لا تنسوا يا رفاق أن تغلقوا الأبواب وتضيئوا الأنوار .. إن العجوز (رفعت إسماعيل) سيسرد قصة شنيعة هذه الليلة .. سأحكى لكم كل شىء ولكن لا أسئلة .. أرجوكم .. حتى أنتهى ..

١ ـ الموهوب ..

أبدًا لن يكف (عماد صبحى) عن إثارة دهشتى .. وحين أسترجع شريط ذكرياتى أجد وجهه فى لقطات عديدة .. دائمًا تحوطه هالة من الإعجاب والانبهار ..

ما الذى كان ينقص هذا الفتى كي يكون سعيدًا ؟..

كان وسيمًا .. وسيمًا كصور الأبطال الإغريق التى ترسمها الأساطير ، فارع القامة أميَل للسمرة .. تتطاير خصلات شعره فاحم السواد لتداعب جبينه الوضاء فى افتتان ..

وكان قويًا كالمصارعين الرومان .. وكان أنيقًا كواحد من الموديلات المجسمة التى نراها فى نوافذ المحلات .. وبالتالى كان يناسبه كل شىء وكل زىّ كأنما خلق له ..

دعابته حاضرة كأفضل ما يكون .. ولسانه ـ الشبيه بالسوط ـ يبرز ليلسع كل ما يروق له أو يراه سخيفًا ، والمعجزة هنا هى أنك تنفجر ضاحكًا معه حتى ولو كان يتهكم عليك ، لأن أصالة دعاباته وطرافتها كانت تذيب حاجز الكبرياء الشخصية فترى نفسك مجردًا كما خلقك الله .. وتدرك مدى سخفك أو غبائك ..

لقد كان طرازًا نادرًا من البشر ..

عازف كمان من الطراز الأول .. وقارئ كتب من الطراز الأول أو كما قال عن نفسه :

ـ « أنا قارئ محترف .. ولابد أن أحد أجدادى كان (عثة) كتب .. » .

وكان على قدر لا بأس به من الثراء .. الثراء الذى لا يثير حسدًا ولا ضغينة لدى زملائه المعدمين من أمثالنا .. وكان كريمًا كالأمطار حتى أننى أسائل نفسى عن تصرفه لو أننى طلبت عينيه بشىء من الإلحاح !..

كان هذا هو (عماد صبحى) ..

فهل لديك سبب يفسر ألا يكون هذا الكائن الأسطورى سعيدًا ؟

* * *

عرفته فى السنة الأولى لى فى الجامعة ..

وكنت أنا أدرس الطب .. وكان هو يدرس العلوم البيولوجية .. وبالتالى كان لقاؤنا الأول فى أحد معامل (البيولوجى) غارقين فى التعاسة محاولين العثور على الوريد البوابى لضفدعة مصلوبة فى طبق شمعى .. وكانت الدماء تتسرب من مكان ما لتنتشر فوق سطح الماء فتستحيل الرؤية ..

قال لى فى قنوط متأملًا المشهد :

ـ لاجدوى .. جراحة فاشلة .. لقد ماتت (المرحومة) بعد ما ثقبنا (الأورطى) ..

ثم وضع المبضع والجفت جانبًا ونهض هاتفًا :

ـ سأدعوك إلى ضفدعة أخرى على حسابى .. ولكن لنكن حذرين هذه المرة ..

وبعد دقائق عاد بضفدعة مكتنزة اشتراها .. وبدأ يحاول تخديرها بالكحول ثم ثبتها بالدبابيس فى الطبق إلى جوار جثة (المرحومة) السابقة .. وقال :

ـ (عماد صبحى) .. السنة الأولى بكلية العلوم ..

ـ (رفعت إسماعيل) ... السنة الإعدادية بكلية الطب .

ـ قاهرى ؟

ـ بل من (الشرقية) أساسًا .. ثم أننى نزحت إلى (المنصورة) وأعيش هناك ..

ثم إننى ابتسمت فى حرج .. وأردفت :

ـ إننى قروى ساذج إذا كان يناسبك هذا النوع من التعبيرات ..

ـ كلنا ذلك الرجل ..

وبدأ فى صبر يقصّ عضلات البطن بطرف المقص ، كان دقيقًا فى عمله وكأنه جراح محترف .. وبثقة ربط الوريد البوابى بقطعتى خيط ثم أدخل يد المبضع تحته ليغدو الوريد واضحًا للعيان .. وأردف :

- هو ذا الوريد ..! والآن ..

ثم اكفهر وجهه وهو يرمق البقعة الحمراء التى بدأت تنتشر فوق سطح الماء قادمة من أسفل الطبق كبقعة زيت قادمة من خطّ أنابيب نفط دمره طوربيد .. ، وأدركنا أننا فشلنا .. فتبادلنا الابتسامات الساخرة ..

وتركنا مسرح الجريمة عالمين أننا - على الأقل - غدونا صديقين ..

★ ★ ★

وتوطدت العلاقة بيننا ..

عرفت كل شىء عن أصدقائه .. أسرته .. هواياته .. ، وعرفت أنه إنسان نادر .. ، لا يوجد إنسان بلا عيوب .. لكن عيوب (عماد) كانت خافية عن عينى أو هى - على الأقل - خافتة جدًا ..

تجادلنا كثيرًا فى السياسة والأدب .. وعما إذا كان (العقاد) مغرورًا أم عبقريًا .. وما إذا كان الإنجليز سيرحلون عنوة أو طواعية .. وما إذا كانت (فاتن) هى أجمل فتاة رأيناها فى حياتنا أم هى - فقط - واحدة من أجملهن ..

ولما كنا قد نشأنا فى بيئات منغلقة فإننا حاولنا أن (نركّب) عواطفنا على أول فتاة تصلح لأن نحبها ، دون اقتناع حقيقى من جانبنا ،ودون أدنى تشجيع من جانبها ..

وطفقنا نقرض الشعر - كالفئران - ونكتب مئات القصائد عن كيف تضحك (فاتن) وكيف تقطب وكيف تمشى وكيف تجلس وكيف تأكل ساندوتشات (الطعمية) الساخنة .. ، وفى صباح اليوم التالى نلتقى أنا وهو ونتبادل قراءة القصائد .. تلك القراءة التى ندرك بعدها أننا خُلقنا للعلم وليس الأدب .. ونمزق ما كتبناه ونضحك !..

أواه من لذعة الذكريات الحبيبة !..

كانت (فاتن) زميلتى فى الكلية .. وكان عدد الفتيات محدودًا فى دفعتى ، وكان (عماد) يجىء ليتبادل معى الآراء المتمردة .. فكان يراها .. ولم أحاول منعه من المجىء لأن حبى لها كان باهتًا يحتاج إلى صراع .. إلى تبادل آراء مع شخص آخر يعانى ذات الألم .. وكان (عماد) مناسبًا لأن يكون هذا الشخص ..

معه بدأ هذا الحبّ يتخذ طولًا وعرضًا وارتفاعًا ، وأضفى عليه عنصر المنافسة كل ما يلزم كى يصير حبًا حقيقيًا كالذى نسمع عنه ..

★ ★ ★

وفى مكتبة الكلية وقفت أنا وهو نقلب مجموعة من الكتب الثقافية بحثًا عن شىء لم نقرأه .. وكان هو يردد فى عصبية :

- كتب .. كتب .. كتب .. متى وجدوا الوقت ليكتبوا كل هذا إذا كان القارئ لا يجد وقتًا ليقرأ كل هذا ؟..

وفجأة لكزته بكوعى منبهًا ..

كانت (فاتن) وإحدى صديقاتها واقفتين تقلبان صفحات كتاب سميك على بعد بضعة أمتار منا ..

همس لى فى حزم وهو يعيد الكتاب الذى فى يده إلى الرف :

- هلم اتبعنى !..

وتقدم نحوهما فى حين سرت خلفه محاولًا منع نفسى من الفرار كالأرانب ..

ووقف أمام (فاتن) عاقدًا ذراعيه على صدره .. وهتف فى ثقة :

- أيًا ما كان موضوع هذا الكتاب فأنا مستعد لمناقشته معكما فورًا !

تبادلت هى وصديقتها نظرة حيرى ، ثم رفعت الكتاب لترينا غلافه .. وكان مجموعة أشعار (ابن الفارض) ..

فتنهد (عماد) وبدأ يثرثر عن قيمة الشعر فى حياتنا وهل التراث هو الأهم أم التجديد .. و .. و ......

لاحظت - فى هلع - أنه لم يعد لى أى دور فى هذه المحادثة وأن الفتاتين قد رفعتا رأسيهما الصغيرين ليصلا

إلى مستوى هذا العملاق ، وقد بدا عليهما أنهما ترشفان كلامه رشفًا ..

تنحنحت .. قلت ملحوظة ما ثلاث مرات لكن أحدًا لم يصغ لى .. ، ونظرت إلى (عماد) فوجدته وسيمًا .. وسيمًا إلى حدٍ لا يصدق .. إلى حدٍ يثير الغيظ ، أما أنا فكنت نحيلًا كالقلم الرصاص هزيلًا كالعنكبوت فقيرًا كـ (ابن دانيال) ..

وكان الصلع - حتى فى هذا السن المبكر - يتحسس مقدمة رأسى فى حذر ..

قررت أن أنسحب .. ألقيت كلمة اعتذار مهذبة لكن أحدًا لم يهتم بالرد عليها ..

لقد عرفت فتيات كثيرات بعد ذلك ، وتعلمت أننى من الممكن أن أكون محبوبًا وأن تنبهر بى إحداهن ، لكن مرارة هذا الموقف ستظل فى حلقى - بعد خمسين عامًا تقريبًا - وسأحملها معى إلى القبر ..

وفى اليوم التالى قابلت (عماد) ..

وكما هو متوقع لم أستطع أن أخفى نوعًا من الفتور تجاهه باعتباره ذلك الذى نال كل شىء فى الحياة دون أدنى جهد من جانبه ..

سألنى فى مرح وهو يناولنى لفافة تبغ (كان هذا هو العام الذى بدأت فيه التدخين للأسف) :

- لماذا انصرفت بهذا الأسلوب أمس ؟

قلت فى اقتضاب :

ـ لأننى لا أحب (ابن الفارض) !..

ـ على كل حال لم يفتك الكثير .. لقد كانت (فاتن) هذه تافهة كالخنفسة وهى عاجزة حتى عن فهم لماذا تحب الشعر .. إنها تقرأ الشعر لأن الفتيات الحالمات جميعهن يقرأن الشعر !

ثم ربّت على كتفى وأجلسنى على السور الحجرى الذى يحيط بالحديقة .. وسألنى فى حذر :

ـ اسمعنى يا (رفعت) .. هل سبب ضيقك هو ما أظنه ؟

ـ أنا لا أعرف ما تظنه ..

ـ إذن .. أصغ لى .. إن الرجل الذى يتخلى عن صديقه من أجل امرأة ليس رجلًا .. فالصداقة خالدة وثمينة جدًا ومن القسوة أن نخدشها بهذه الترهات .. ثم إننى لا أهتم بها شعرة وأقسم على هذا .. إنها حالة من التقمص حاولت وضع نفسى فيها وفشلت ..

نظرت فى عينيه .. ونفثت دخان التبغ متسائلًا :

ـ إذن .. بم تهتم ؟!

نظر فى شرود إلى بعيد .. عيناه ترحلان إلى عوالم أخرى لا أراها .. وهمس :

ـ لا أدرى بالضبط .. إننى ظامئ إلى شىء لا أدرى عنه

شيئًا !.. أريد أن أعرف أكثر وأن أصل إلى الحقيقة .. صدقنى يا (رفعت) .. لست سعيدًا على الإطلاق رغم كل التدليل الذى تمنحنى إياه الحياة .. لا يمكن لإنسان أن يحظى بالسعادة مع روح قلقة متمردة كالتى أملكها ..

كانت هذه هى أهم عبارة قالها لى فى حياته .. وعلى ضوئها أمكننى تفسير كل ما حدث له فيما بعد ، ولهذا السبب أذكرها وأذكر النبرة التى قالها بها بعد كل هذه الأعوام ..

وهنا قطع حديثنا صوت أنثوى مرح يهتف :

ـ لقد قرأت الكتاب الذى طلبت منى قراءته أمس !

كانت هذه (فاتن) وقد تغلبت على تحفظها الطبيعى لتأتى إلى حيث جلسنا ملوحة بكتاب ما فى وجه (عماد) وكأنها تريد استكمال محادثة الأمس ... نظر لى (عماد) نظرة ذات معنى وألقى لفافة التبغ بعيدًا .. ونهض متثاقلًا ليسير معها يتحدثان عن هذا الكتاب ..

للمرة الأولى أدركت أنه يمثل دورًا اجتماعيًا لا يريده لمجرد أن يرضيها .. لسان حاله يقول :

تذكر .. إنها حالة من التقمص .. لا أكثر ..

★ ★ ★

ومرت أعوام الدراسة ..

وتخرج هو قبلى بطبيعة الحال وتم تعيينه فى قسم النبات بالكلية أما أنا فكانت ثلاثة أعوام قاسية تنتظرنى مع سنة تدريب وسنة عمل بالريف قبل أن أغدو طبيبًا مقيمًا للأمراض الباطنية بكلية الطب جامعة (......) ..

لم تمت صداقتنا .. لكنها خبت كالنيران فى قطعة من الفحم .. ذهب وهجها لكنها مازالت هناك تمنح الدفء والضوء إلى حدٍ ما ، ولا ينقصها سوى بعض أنسام الهواء كى تبعث ثانية ..

كان متميزًا فى مجال تخصصه ..

عرفت هذا وسمعت عنه الكثير من زملائه وطلبته ..

ثم رشحته الدولة لنيل درجة الدكتوراه من (انجلترا) فسافر إلى هناك بضعة أعوام ، وعاد إلى وطنه دكتورًا فى علم (النبات) .. لكننى لم ألقه منذ عودته لانشغالى فى درجة (ماجستير) أمراض الدم ..

كنا شابين ناجحين .. وكان المستقبل ينتظرنا .. وكل شىء يبشر بغد باسم مزدهر بالسعادة ..

لكن الأمور لا تؤخذ بهذه البساطة ..

ولو أنك دنوت من لوحة زيتية جميلة لرأيت شقوق الزيت وتجعدات القماش ، القبح الذى لا تراه حين تبتعد عن اللوحة ..

كذلك البشر .. لو أنك سمعت عنهم من بعيد لسمعت أشياء رائعة .. ولتمنيت لو أنك كنت أحدهم .. ، أما لو دنوت منهم فسترى عجبًا ..

متى دنوتُ من (عماد) لأرى شقوق الزيت على وجهه ؟

كان ذلك عام ١٩٥٥

ولهذا قصة عجيبة سأحكيها لك فى الفصل القادم ..

* * *

٢ ـ موكاسا نيجرا ! ..

جذبت فرملة اليد فى اللحظة الأخيرة فمنعت الحادث المروع ..

لماذا لم تستجب الفرملة تحت قدمى ؟.. لا أدرى بالضبط .. إن أشياء غريبة تحدث لى هذه الأيام .. ولعل حداثة عهدى بالقيادة لها دور ما فى كل هذا ..

المهم أننى نزلت لأتلقى إهانات ـ أو على الأقل توبيخات ـ سائق السيارة (الأوبل) التى كدت أحطم مقدمتها ، فوجدته هو .. هو (عماد) بشحمه ولحمه ووسامته ..

صحيح أن السنين لم تترك مفرقيه وشأنهما ، وصحيح أن تجاعيد دقيقة وجدت طريقها إلى ما تحت عينيه وحول فيه لكنه لم يتبدل كثيرًا .. وكان يضحك مما أكد لى أنه تعرّف علىّ بذات الكيفية رغم أننا لم نلتق منذ خمسة أعوام ..

ـ (رفعت) !.. أرى أنك ازددت قبحًا وخبالًا !

ـ وأنت ازددت وقاحة !

وتعانقنا .. وبدأنا نتبادل المعلومات عن الشلة .. (عادل) أصبح نقيبًا ونزح إلى (الإسكندرية) .. كان دائمًا محظوظًا وسيظل .. لقد تزوج !.. تصور هذا المخبول فعلها وازداد عدد المعتوهين واحدًا .. بل اثنين لأن (ممدوح) فعلها هو الآخر بمجرد أن استلم عمله فى البنك .. أما (عزت) فترك (سميرة) بعد خطبة طالت .. كذا قصص الحب دائمًا تنتهى نهاية مؤسية .. إما الفراق وإما الزواج !.. للأسف لم يمت أحد .. لكن (محمود) مريض جدًا .. من الواضح أنه سرطان الدم .. يا للبائس !.. لماذا لم يخبرنى بذلك وأنا متخصص فى أمراض الدم ؟.. لأنك حمار يا عزيزى (رفعت) !.. من المستحيل أن نثق فى أصدقاء صبانا وأن نسلمهم حياتنا مهما بلغوا من مناصب عليا .. لقد كنت تخطف منه (الفيشار) فكيف تريده أن يأتمنك على خلايا دمه ؟!..

ضحكنا كثيرًا جدًا ..

وذاب الزمان والمكان ولم تبق سوى اللحظة ..

وأقسم أغلظ القسم على أن أذهب معه إلى داره لتناول طعام الغداء ، وازداد تشبثًا لما علم أننى لا أملك عيادة خاصة ..

وهكذا .. لم أر مفرًا من الذهاب معه لأننى لم أكن أملك مواعيد لألغيها ..
كما أننى كنت ـ بالواقع ـ راغبًا فى العودة إلى النهر القديم ..
كان يعيش فى (الزمالك) وحيدًا ..
فيللا أنيقة حديثة الطراز من طابق واحد ـ كان (عماد) ميسور الحال كما قلت لك ـ يجلس على بوابتها بواب نوبى عجوز ، ويمرح فى حديقتها كلب من طراز (البلاك جاكت) لم يمنعه من افتراسى حيًا سوى زجر (عماد) له أنه من الخطأ افتراس الضيوف .
كانت الحديقة هائلة ..
وهائلة هى الصفة الوحيدة التى يمكن بها أن تنعت هذا الدغل من الأشجار العملاقة الملتفة التى وصل بعضها إلى أحجام جديرة بأفلام الخيال العلمى .. ، وحتى نبات (الفيكس) البائس الذى تحوّل فى شقتى إلى حزمة من الفجل بدا عنده كوحش أسطورى قادم من غابات (الأمازون) ..
وكانت هناك صوبة زجاجية يصل طولها إلى ثمانية أمتار تتبدى خلف زجاجها المغطى ببخار الماء أوراق هائلة الحجم لنباتات أذكر منها شكلها دون أسمائها ..

قلت فى شىء من الذهول :
ـ إنك تجيد مهنتك حقًا !
ضحك متهكمًا وهزّ كتفيه :
ـ لم أتخرج فى كلية الزراعة فلا دور لدراستى إذن فى هذا النماء .. إنه نموذج لما يمكن أن يقدمه علم خواص التربة ..
ـ كنت أظن تخصصك هو النبات ..
ـ طبعًا .. لكن علم النبات ليس هو العلم الذى يخبرك بالضرورة بأفضل الطرق لزراعة حديقتك ..
ودخلنا إلى الفيللا الأنيقة التى ينطق كل ركن فيها بذوق سليم ..
شىء مستفز !.. ولا قطعة أثاث فى غير موضعها .. ولا تشكيل لونى واحد غير متناسق مع ما حوله .. أما الأسوأ فهو أن كل هذا كان يضوع بطابع البساطة المحببة .. بلا تكلف ولا جهد ..
واتجه (عماد) إلى ركن القاعة وانتقى بعض الأسطوانات من مُغلّف أنيق .. وسألنى :
ـ هل تحب (فاجنر) ؟
قلت فى فتور (فأنا بالمناسبة عدو الموسيقا الكلاسيك رقم واحد) :
ـ أحبه إلى درجة أننى أفضل الموت ما لم أستمع إليه !

هتف فى مرح وهو يضع الأسطوانة على جهاز (جرامو فون) جميل الشكل :

ـ رائع !.. والآن فلنصغ معًا إلى صراع الأرواح القلقة التى أبدعتها عبقرية هذا الساحر .. إننى لا أمل هذه التحفة ..

وتصاعدت من مكان ما بالقاعة النغمات القدرية الدوّامية المميزة لـ (طائر النار) فشعرت أننى أحلق معها .. من العجيب أننى لم أكن أعرف اسم هذا العمل لكنى فردت جناحين وهميين أطير بهما فوق آفاق لم أرها فى حياتى لعوالم لم يزرها بشر ..

وفى أثناء هذه الملحمة دقّ جرس الباب فاتجه (عماد) ليفتحه ، كان هذا هو البواب الذى ناول (عماد) لفافة ما .. وعاد (عماد) حاملًا اللفافة وأحضر طبقين وأدوات طعام وكوبى ماء ، وأعدّ مائدة صغيرة فى قاعة الجلوس تصلح لنتناول عليها ما جلبه البواب من المطعم المجاور .. كان هذا كبابًا ساخنًا وكان هذا كافيًا ليغيب الأخ (فاجنر) فى غياهب النسيان فلم تبق منه سوى ضوضاء مبهمة فى مؤخرة وعيى ..

وارتفعت أصوات المضغ والازدراد فالهضم ..



قلت فى شىء من اللهوجة :

ـ إنك تجيد مهنتك حقًا !

سألته وأنا ألعق شفتى :

ـ تعيش على الطعام الجاهز ؟

ـ أجده أكثر ملاءمة لحياة عملية .. إن مطبخ هذه (الفيللا) لا يحوى وعاء طهى واحدًا ..

ـ هذا شأنى أنا الآخر ..

ونظرت له شاردًا ..

لا أدرى لماذا يا (عماد) أفتقد فيك الكثير من نزق الماضى ومرحه ؟.. أنت هو أنت ولكن فى طبعة ماسخة فاترة ..

لماذا تعيش وحيدًا فى هذه (الفيللا) الكئيبة ؟.. لماذا فارقت أسرتك ؟.. لماذا لم تتزوج بعد ؟.. إن البرد يطلّ من كل ركن فى هذا المكان رغم أناقته .. لأنها حياة بلا صديق .. بلا أهل .. بلا أطفال .. بلا زوجة ..

أعرف أن حياتى الخاصة لا تختلف عن هذا كثيرًا لكن وضعى يختلف .. فأنا ـ وقتها ـ كنت فى طريقى للسفر إلى (اسكتلندا) للحصول على درجة دكتوراه فى أمراض الدم تحت إشراف السير (جيمس ماكيلوب) ، وكنت سأقابل (ماجى) ابنته التى ستكون السبب الحقيقى فى عدم زواجى .. كانت ظروفى لا تسمح بتكوين أسرة وقتها .. لكن ذاك لم يكن شأن (عماد) ..

بعد الكباب ـ وبعد أسطوانة (فاجنر) ـ سألته عما يجول بخلدى من خواطر ، فنهض ليضع أسطوانة لـ (موتسارت) رغم احتجاجى الصامت ، وقال وهو يعود ليجلس على الأريكة :

ـ قلت لك مرارًا يا (رفعت) إننى روح قلقة .. روح لا ترضى بأى شىء من الأشياء التى يحبها أصحاب الأرواح المترهلة المتراخية .. إننى ثرى لكننى تعس .. ناجح فى عملى لكننى تعس .. لو تزوجت من فتاة حسناء سأظل تعسًا .. لو رزقت بأروع طفل فى العالم سأظل تعسًا ..

وفكر لحظة ثم أردف ببيت شعر لـ (أبو العلاء المعرى) يقول :

ولو أن النجوم لدى مال نفت كفاى أكثرها انتقادًا

كان هذا هو لقاؤنا الأول بعد سنوات الفراق ..

ولم أكن أعلم ـ ولم يكن هو يعلم ـ أن فراقنا سيطول كثيرًا .. وأننا لن نلتقى إلا فى عام ١٩٦٨ ! ، أى بعد ثلاثة عشر عامًا كاملًا تغيرت فيها أشياء وأشياء ..

لقد سافرت إلى اسكتلندا (جامعة داندى) ثم عدت من هناك ، وبدأت رحلة حياتى العجيبة التى اصطحبتكم فيها معى منذ قصة (مصاص الدماء) وحتى هذه القصة التى أحكيها لكم الآن ..

بالطبع لم أملك وقت فراغ يسمح لى بإعادة الاتصال بـ (عماد) .. ولم يكن هو يعرف طريقة اتصال مؤكدة بى لأن عنوانى تبدّل ..

لكن الأرض مستديرة ، أو كما يقولون (مصير الحىّ يتلاقى) ..

وكان اللقاء الثانى فى تلك الأمسية التى عدت فيها لدارى مُنهكًا شاعرًا بالوحدة والوحشة فى الأيام التى تلت انفصالى عن (هويدا) .. ، كدت أختنق من ثقل الساعات فوق روحى ، وقد كنت فى البداية أستطيع زيارة (هن ـ تشو ـ كان) ـ الكاهن الأخير ـ فى شقته .. أما وقد آثر البقاء فى (التبت) فلم يعد لدىّ سوى (عزت) جارى المثالى ..

وبالطبع لم أجده فعلمت أنه فى (الإسكندرية) كعادته يبحث عن وحى جديد .. إلى أين أذهب إذن ؟

وهنا تذكرت (عماد) فجأة كما ينحسر المدّ عن سفينة غارقة نساها الناس منذ قرون .. لمَ لا أكرر زيارتى له ؟.. ترى هل تزوج ؟.. ترى هل سافر ؟.. ترى هل مات ؟!..

ودونما تفكير وجدتنى أقود سيارتى فى شوارع (الزمالك) معتصرًا ذاكرتى بحثًا عن مكان (الفيللا) التى زرتها منذ ثلاثة عشر عامًا ..

أخيرًا وجدتها .. لم يتغير شىء سوى إهمال واضح فى الحديقة ، والبواب النوبى العجوز مازال جالسًا يدخن (الجوزة) ويبصق ويصغى للمذياع الصغير الذى وضعه جواره على الدكّة ..

دنوت منه وسألته ـ وقلبى يخفق ـ عن دكتور (عماد) فسعل ثلاث مرات .. وأمرنى أن (استنى هنا) بصيغة التأنيث التى يستعملها النوبيون .. وهرع إلى داخل (الفيللا) .. بضع دقائق ثم عاد لى يدعونى للدخول ..

ـ ولكن الكلب ؟

ـ لم تعد هناك كلاب .. أدخلى ولا تخافى ..

وفتح لى البوابة عن آخرها ، فتسللت منها أجرّ قدمًا وراء قدم .. ما بين صفوف الأشجار العملاقة التى أجهل اسمها ، والنباتات التى جاءت لتوها من المريخ ..

غريب هذا السكون .. السكون المريب ..

لا صوت هنالك سوى صوت أعشاب تتهشم تحت حذائى ، وثمة سحلية صغيرة بائسة تختفى فى وجل بين الخضرة وقد أزعجها قدومى غير المتوقَّع ..

كان هناك خرطوم مياه على الأرض يفرغ تيارًا منتظمًا من الماء على جذور شجيرة برتقال طفلة .. فمضيت أتتبع ذلك الخرطوم عالمًا أنه سيقودنى إلى صنبور ربما يقف (عماد) جواره ..

وهنا وجدت حوضًا صغيرًا به نباتات لم أر مثلها فى حياتى ..

كانت الأوراق مسودة حافاتها حمراء كالدم .. وكانت أشواك حادة بشعة المظهر تحيط بكل ورقة على امتداد محيطها .. ، ارتفاع النبتة يقترب من المتر ولها رائحة غريبة لم ترق لى كثيرًا ..

وجدت لافتة خشبية صغيرة مزروعة على حافة الحوض كُتب عليها بحروف لاتينية (موكاسا نيجرا) ..

إذن هذا هو اسم النبات .. غريب أن يكتب أحدهم أسماء النباتات فى حديقته كأنه معرض أو مُتحف تعليمى ..

إن (نيجرا) كلمة لاتينية معناها (أسود) .. وما دام هذا النبات أسود فلابد أن نبات (الموكاسا ألبا) - (ألبا) باللاتينية معناها (أبيض) - ينتظر على بعد أمتار من هنا ..

مشعلًا سيجارة (للأسف كانت محاولتى الأولى للإقلاع قد فشلت) ..

مضيت أتأمل المزروعات واضعًا يدى فى جيبى .. ، لم تكن ثمة أسماء أخرى فقد انتهى دور (عماد) التعليمى عند نبات (الموكاسا) فيما يبدو ..

ومن الواضح أنه يعلق أهمية معينة على هذا النبات ..

كنت مديرًا ظهرى للنبات الذى وصفته لك وقد انحنيت أتأمل النباتات الأخرى فى فضول .. النباتات ذات المظهر المألوف لى ..

حين حدث شىء مفزع ..

* * *

٣ ـ إنه حىّ ! ..

حتى فى تلك الآونة كنت ساذجًا ..

وكنت بحاجة إلى المزيد من الدروس عن الحياة والمخلوقات ..

الحق أقول لكم أننى كنت أجهل حقيقة مروعة : حينما تجد نباتًا لا تعرفه فليس من الحكمة أن تدير ظهرك له !..

وسأقول لكم حالًا كيف تعلمت هذه الحقيقة ..

★ ★ ★

سمعت صوت حفيف من وراء ظهرى فأجفلت واستدرت لأرى ..

قلبى سقط فى قدمى لثوان ثم أنه ـ بعد أن رأى ما رأى ـ ظل فى قدمى رافضًا أن يعود لمكانه !..

رأيت ـ غير مصدق ولا متوقع ـ أوراق النبات إياه تُفتح وتُغلق مرارًا لا حصر لها كأنها قد جُنت ، والأسوأ هو أنها كانت تتلوى فوق سيقانها .. والسيقان نفسها تتلوى كأنها ترقص رقصة محمومة ..

ورأيت شيئًا طويلًا ـ كأذرع النباتات المتسلقة ـ يخرج من بين السيقان مرتفعًا ببطء نحو وجهى !..

مستحيل !.. ليس هذا صحيحًا !..

هل صرخت وجلًا ؟.. أظن اننى فعلت .. حتمًا فعلت .. ووثبت إلى الوراء كرد فعل تلقائى محاولًا الابتعاد عن هذا الكابوس ..

وهنا حدث شىء لا يُصدق ..

وثب الذراع الطويل ـ كلسان حرباء يلتقط حشرة ـ إلى معصمى .. وقبل أن أفهم ما حدث التفّ حوله مرتين أو ثلاثًا .. وشرع يجذبه نحو النبات الأم بقوة لا بأس بها !..

فى البدء ظننت أنها أفعى كانت غافية بين سيقان النبات .. ثم بدأت أدرك أنه ـ بالفعل ـ جزء من النبات ذاته ..

الرعب يقتلنى لكننى قادر ـ رغم كل شىء ـ على انتزاع هذا الذراع بل وانتزاع النبات نفسه من مكانه ، فإن أنسجته هشة حقًا ..

لكننى شعرت بوخز فى معصمى ..

أدركت ـ فى هلع ـ أن هذا الذراع يحقننى بمادة ما ، كالتى يحقن بها العنكبوت ذبابة أضخم منه ليستطيع امتصاص أحشائها .. لا بد أنه مخدر أو مادة تسبب الشلل وبالتالى سيكون من السهل على النبات أن يجذبنى إليه ليبدأ الحفل ..

وثب الذراع الطويل ــ كلسان حرباء يلتقط حشرة ــ إلى معصمي ..

بالفعل .. قواى تخور .. تنميل فى أطرافى .. عرق بارد ..

ثم ......

الظلام .. الأسود العظيم يدعونى إلى مأدبته .. و......

★ ★ ★

مذاق الليمون الحمضى يغمر لعابى ..

ثم قرص (النيتروجلسرين) المرّ تحت لسانى يذوب .. يذوب .. هلمى يا شرايينى التاجية استسلمى للمسة (النترات) الحانية .. تفتحى .. تفتحى .. وامنحى الدماء لقلبى الشيخ ..

وحين فتحت عينى كان هناك ....

لقد تجاوز الأربعين مثلى لكن شتان بين أربعين وأربعين .. أربعون عامًا أطاحت بشعر رأسى وأوهنت نظرى وأصابتنى بالهزال ، أما (عماد) فقد أضافت له السنون رونقًا وسحرًا وجاذبية ..

كنت مضطجعًا على أريكة مريحة فى رواق داره ، وكان هو راكعًا على ركبتيه جوارى يحمل فى يده زجاجة الـ (نيتروجلسرين) التى وجدها فى جيب بذلتى .. لابد أننى طلبت منه أن يدسّ قرصًا فى فمى منها ..

نظرت إليه بعينين زائغتين فبدا عليه الرضا .. وهتف متنهدًا :

ـ أخيرًا يا (رفعت) !.. كدت تقتلنى رعبًا !

ـ ليتنى فعلت !..

وفهمت منه أنه ـ بعد أن أخبره البواب بقدومى ـ بدأ باستبدال ثيابه توطئة لاستقبالى ، ولم يتوقع أن البواب الأحمق سيتركنى أجتاز الحديقة وحدى ، ولم يخطر له أننى ـ المعتوه ـ سأقوم برحلات استكشافية بين الأشجار حيث لا ينبغى أن أذهب ..

فهمت منه كذلك أنه خرج إلى الحديقة بحثًا عنى فسمع صرخة .. ولما ذهب إلى حيث كنت وجدنى مصابًا بنوبة قلبية جوار نبات الـ (موكاسا نيجرا) الذى يربيه فى الحديقة ، وبصعوبة جرّنى جرًا إلى داخل البيت حيث قدم لى شراب الليمون وقرصًا من هذه الأقراص التى يحملها مرضى القلب دائمًا ولا يجدون أبدًا الوقت الكافى لتناولها قبل أن يموتوا .. وهأنذا ـ ولله الحمد ـ حىّ أرزق ..

صحت فى حنق وأنا أقاوم رغبتى فى خنقه :

ـ لم أتوقع أنك جننت تمامًا فى تلك السنين التى لم أرك فيها !..

وإلا ـ بالله عليك ـ ما الذى يدعو إنسانًا عاقلًا لتربية هذا الوحش الذى كاد يقتلنى ؟!

فى دهشة حقيقية تساءل :

ـ عم تتحدث بالضبط ؟.. أى وحش ؟

ـ النبات المشئوم الذى .....

نظر لى هنيهة غير مستوعب لكلامى .. ثم أشرق وجهه بالفهم فضحك ..

وطفق يشرح لى ما خفى عنى :

ـ إذن كانت الهلوسة البصرية هى التى أصابتك بالنوبة !.. الواقع يا عزيزى (رفعت) أنك كنت ضحية هلوسة مريعة تسببها الرائحة التى يطلقها هذا النبات ..

ـ تعنى أنه لم ..... ؟

ـ لا أدرى ما فعله معك .. لكن أيًا ما كان ذلك فهو غير حقيقى !.. والآن دعنى أحك لك القصة من بدايتها ..

★ ★ ★

قال (عماد) :

أنت تعرف أننى كثير الأسفار .. ، ولقد بدأ كل شىء فى رحلة قمت بها إلى الولايات المتحدة حيث قابلت الأستاذ (ديفيد أوبريان) وهو عالم نبات له مقالات عدة لا بأس بها واسمه تعرفه كل المحافل العلمية المختصة ..

كانت صداقة حميمة حقًا .. وعندما حان وقت الرحيل أهدانى كيسًا صغيرًا من (النايلون) به بذور غريبة الشكل

قال لى إنه وجدها فى مكان ما قرب مجرى نهر (الأمازون) .. ودعانى إلى أن أحاول استزراعها فى مناخ (مصر) الدافئ؛ لأن كل محاولاته لاستنباتها قد باءت بالفشل ..

سألته عن اسم النبات ، فقال لى إنه لا يعرفه .. بل وأن هناك احتمالًا لا بأس به أنه لا أحد يعرفه .. ربما كان هذا النبات بكرًا لم يصفه بشر بعد ..

عدت إلى (مصر) ملهوفًا إلى أن أبدأ تجاربى على هذا النبات العجيب ، وكنت منظمًا كعهدك بى .. فقسمت البذور - بعد فحص بعضها تحت المجهر - إلى ست مجموعات قمت بزراعة كل منها فى تربة وظروف جوية مختلفة وإن ملت إلى رفع درجة الحرارة لأن المؤكد أن هذا النبات كان ينمو فى درجة حرارة دافئة ..

وطفقت أنتظر .....

* * *

كانت هذه الأحداث منذ ثلاثة أعوام (والكلام لم يزل لـ (عماد) ، وخيبة الأمل كانت الثمرة الوحيدة التى سمح لى أن أجنيها .. وبدأت أتساءل عما إذا كانت هذه البذور حية أم ميتة .. إننى لم أميز (الجنين) تحت المجهر ولم أستطع تمييز أية أنسجة فهل هى قديمة إلى هذا الحدّ ؟..

كان الضيق يمزقنى والإحساس بالفشل يعتصرنى وخطابات الأستاذ الأمريكى تزيد عذابى ، قلت لك لا جدوى .. أنا حاولت كثيرًا من قبلك ، وأنت تعرف روحى القلقة يا عزيزى (رفعت) ..

أنت تعرف تعطشى الدائم إلى المجهول ..

وأنت تعرف أننى لم أكن لأستريح حتى ألمس الحقيقة ..

وجاء الجواب فى ليلة صيف رائعة نمت فيها أحلم بشريط حياتى الحائرة بحثًا عن شىء لم تستطع ثروتى ولا معرفتى أن تقدمه لى ..

وفى منتصف الليل سمعت جلبة معينة قادمة من أحد أركان (الفيلا) ، فارتديت روبى وخفى وخرجت أبحث عن مصدر الصوت مطمئنًا إلى أنه لن يكون لصًا لأن كلبى الشرس (موكاسا) يحمينى كالشيطان ذاته من بطش اللصوص .. إن اللص الذى يدخل دارى هو ميت مالم يصرخ لننقذه من الكلب ..

وفى حجرة المكتب وجدت ذلك اللص البائس يحاول فتح الخزانة الرقمية الموضوعة هناك على ضوء بطارية .. ورغم دهشتى عن كيفية دخوله لم أفقد ترتيب أفكارى .. من ثم تسللت بخفة إلى خارج الحجرة وجذبت الباب خلفى ثم أحكمت غلقه بالمفتاح من الخارج عالمًا أن الحجرة بلا نوافذ .. وهرعت إلى الهاتف أطلب الشرطة ..

وحين جاء هؤلاء ـ بعد نصف ساعة ـ قبضوا على اللص الذى وقع كفأر فى مصيدة .. وأخبرونى أنه دخل من نافذة حجرة الجلوس بعد أن قطع زجاجها بماسة يحملها ..

أخبرونى ـ كذلك ـ أنه تخلص من الكلب ليتسنى له الدخول عن طريق إلقاء رغيف مملوء باللحم المفروم فى طريقه .. وكان اللحم المفروم مخلوطًا بمادة (الزرنيخ) التى التهمها عزيزى (موكاسا) فى نهم ليلفظ أنفاسه الأخيرة ، ويتمكن اللص من اقتحام (الفيللا) آملًا فى سرقتها دون أن أستيقظ أنا ..

كانت ـ بالتأكيد ـ مغامرة بائسة ، ولم يستفد منها أحد .. لا اللص ولا الكلب ولا أنا .. واحد فقد حريته وواحد فقد حياته وواحد فقد كلبه العزيز ..

وكل هذا من أجل حفنة جنيهات ..

المهم أن دموعًا كثيرة بللت جثة الكلب ، وآليت على نفسى لأدفنه بنفسى فى الحديقة بين الأشجار التى أحبها فى حياته كثيرًا ..

وفعلت ذلك وتبًا لها من مهمة قاسية !

بعد يومين لا أكثر بدأت ألاحظ أشياء أثارت ذهولى ..

فنافشة أوراقها بدأت سيقان سوداء تبرز من التربة ـ حيث واريت جسد الكلب ـ وكلها تحمل أوراقًا سودًا لها حواف حمراء تجللها الأشواك ..

نبات لم أر مثله قط ينمو بسرعة لم أعهدها ..

وهنا تذكرت ..

لقد كنت غرست بعض البذور فى هذه التربة منذ زمن بعيد فى محاولتى لاستنبات البذور التى أعطانيها الأستاذ الأمريكى .. ونسيتها تمامًا ..

فجأة تذكرت هذه البذور إنها حية وإنها يجب أن تمارس ما خلقت له ..

فما سرّ هذا التحول المفاجئ بعد كل هذا الصمت ؟!..

الإجابة معروفة لنا جميعًا .. إنها جثة الكلب المتحللة التى منحت البذور موردًا هائلًا من (النيتروجين) و (الكبريت) و (الهيدروجين) كانت تحتاج إليه ..

وها هو ذا الحادث الأليم قد أفادنى كثيرًا .. وقدم لى الجواب ..

إن بذور هذا النبات لا تنبت إلا فى تربة تحوى كائنًا عضويًا متحللًا وهو ما لا بد أنها كانت تجده بكثرة فى (الأمازون) ..

سيكون اسم النبات هو (موكاسا) تخليدًا لذكرى كلبى .. ونظرًا لأن قواعد التسمية الصارمة التى وضعها (لينيوس) تحتم وجود مقطعين للإسم فإننى سأسمى النبات (موكاسا نيجرا) نسبة إلى سواد أوراقه العجيب ،

وليكوننَ (موكاسا نيجرا) هو حديث العلماء فى العقد القادم .. وليكوننَ هو شغلى الشاغل فى الأيام القادمة ..

تشريحه .. أسلوب تكاثره .. تمثيله الغذائى .. كل هذا وأكثر لا بد وأن يُدوّن ويوصف بدقة ..

ثم ـ السؤال الأهم ـ ما سرّ نهم هذا النبات المحموم إلى (النتروجين) ؟

إنه فى هذا يتصرف كالنباتات المفترسة ـ وعددها خمسمائة نوع فى العالم ـ التى تعيش فى تربة فقيرة فى (النتروجين) من ثم تعوّض حاجتها له عن طريق اصطياد الحشرات وهضمها بواسطة إنزيمات (التربسين) و (الببسين) المماثلة لما تفرزه معدة الحيوانات آكلة اللحوم ..

إن هذه النباتات أعجوبة حقيقية .. فمنها ما يطبق بأوراقه ـ كالمصيدة ـ على الحشرة التى يقودها سوء أخلاقها إلى الاقتراب من هذه النباتات .. ومثالها نبات (ديونيا) ..

ومن هذه النباتات ما يفرز سائلًا لزجًا على الأوراق تلتصق به الحشرات ..

ومثالها نبات (بينجويكلا) الذى رأيته فى مستنقعات (انجلترا) ..

ومنها نباتات ذات وعاء أنبوبى مبلل لتنزلق الحشرات على حافته فتسقط داخل الوعاء .. ومثالها نبات (سراسينيا) فى أمريكا الشمالية ..

لكن الـ (موكاسا) يختلف .. فهو لا يملك أية حيل مماثِلة ، والذباب يقف على أوراقه طيلة الوقت دون أن يبدى هذا اهتمامًا ..

إنه ليس نباتًا مفترسًا أو هو ـ على الأقل ـ يتظاهر بالبراءة ..

لقد أمضيت عامًا كاملًا مع هذا النبات ولم أر شيئًا يثير ريبتى .. إلا أن هناك نقطتين هامتين يجب ذكرهما :

النقطة الأولى : هى أنه يطلق زيتًا عطريًا معينًا له خواص غامضة .. لكنه يسبب هلاوس بصرية وسمعية شنيعة .. وأنا أعرف أنك جربت هذه الهلاوس .. وهى خطرة بالفعل بالنسبة لضعاف القلوب ..

النقطة الثانية : هى أن النبات لا يحوى جزىء (كلوروفيل) واحدًا .. مثله مثل النباتات الطفيلية كلها ، لكنه يحوى مركبًا أحمر اللون لا أعرفه ..

وهذا المركب يختزن (الأكسجين) ويطلقه على فترات متباعدة ..

أعرف أن كلامى يبدو سخيفًا ، لكن هذا المركب يذكرنى بالدم البشرى إلى حدّ مفزع !!

.... !

* * *

٤ ـ تساؤلات ..

كان الدوار قد تلاشى وبدأ رأسى يتزن على كتفى .. فجلست على الأريكة للمرة الأولى وحككت رأسي وسألته :

ـ ماذا تعنى بقدرة النبات على إحداث هلاوس ؟

فى حماس .. غمغم وهو يجلس على أريكة أخرى :

ـ لِمَ لا ؟.. كم نوعًا من المخدرات تم استخراجه من ثمرة الخشخاش ؟

وكم من الهلاوس يحدثها نبات (البيللادونا) ؟.. شىء مألوف وطبيعى أن تخرج من نبات ما رائحة تسبب الهلوسة ..

ـ وما هذا الصبغ الأحمر الذى تتحدث عنه ؟

هذه المرة نهض فى حماس ، وغاب عن عينى بضع دقائق أخذت أتأمل الشقة فيها ثم عاد لى حاملًا أنبوب اختبار مغلقًا بسدادة من الفللين .. كان الأنبوب يحوى مادة حمراء اللون قانية ..

قال وهو يناولنى إياها :

ـ هى ذى .. لقد فشلت تمامًا فى معرفة كنهها ..



هذه المرة نهض فى حماس ، وغاب عن عينى بضع دقائق ، أخذت أتأمل الشقة ، فيها ثم عاد لى حاملاً أنبوب اختبار ..

دسست الأنبوب فى جيب سترتى .. وقلت فى توتر :

ـ دعنى أحاول .. إن التحليل (الكروماتوجرافى) سيساعدنا كثيرًا .. ولكن لا تقل لى إنك لم تطلب عون أحد زملائك من أساتذة الكيمياء ..

ـ لا أريد إقحام أحد فى هذا الموضوع كما تتوقع .. إن نبات (موكاسا) ملك لى وحدى ولربما أنت أول مخلوق يعرف ما أعرف ..

ـ إذن ثق فى ..

وساد الصمت لبرهة ..

غريب عليك يا (عماد) أن تنغلق على نفسك لتعيش مع هذا الكابوس .. أنا أفهم الفضول العلمى تمامًا لكن هذا الفعل جدير بشخصية أخرى .. شخصية معقدة انطوائية تهوى أكسجين الوحدة .. وتعشق ظلال الليل .. شخصية هى أقرب للوطاويط منها للبشر .. شخصية هى أبعد ما تكون عنك ..

لكن الأعوام تغير الكثير .. إنها تبدل تضاريس الجبال فكيف لا تبدل تضاريس شخصيتك ؟..

دون كياسة سألته وأنا أنظر فى عينيه :

ـ لماذا لم تتزوج بعد يا (عماد) ؟

هزّ يده فى توتر .. وأبعد عينيه عنّى :

ـ لأنى لا أحب الخداع !.. هذا هو كل شىء !

ثم انتابته حالة من العدوانية فرفع حاجبه الأيسر متسائلًا فى تحد :

ـ ولماذا لم تفعل أنت ؟

ـ لأننى لم أنضج بعد إلى الحد الكافى .. أبدًا لن أصدق أننى كبرت وصرت صالحًا للزواج كالآخرين !

تحاشى النظر إلى عينى .. ففهمت على الفور ما يريد قوله وما يعنيه بلفظة (خداع) .. ولم أر من صواب الرأى أن أستفسر أكثر فغيرت الموضوع سريعًا إلى سؤاله عن أحواله ، وإلى ثرثرة طويلة عن حياتى وأحداثها فى الآونة السابقة ..

وحين عدت إلى دارى كان الليل قد انتصف .. وسجائرى قد نفدت ..

* * *

شقتى الكئيبة الحبيبة !..

اتجهت إلى جهاز التسجيل فوضعت بكرة عليها حفل (لأم كلثوم) ، وعلى الموقد وضعت برّاد الشاى وبدأت أنضو ثيابى ـ فى الصالة كدأبى ـ ثم دلفت إلى الحمام لأفتح المياه الساخنة .. فأنا بحاجة إلى حمام يغسل عن جسدى آثار مغامرة الأمسية ..

الماء !.. الماء الحبيب !.. توأم روحى .. و ...... آى !..

هذا الألم المبهم فى معصمى .. ما سره ؟!..

خرجت من تحت شلال الماء لأرى ما هنالك .. فوجدت وخزات عدة كآثار إبر تركت رءوسًا حمراء فى جلدى ..

كان البخار يملأ المكان .. وصوت (أم كلثوم) الدافئ الحارق يردد (هذه ليلتى) .. والماء ينساب على أهدابى فيحجب الرؤية ..

لكنى شعرت الرعب يزحف عبر عمودى الفقرى .. والشعيرات الباقية فى رأسى تنتصب ..

إذن لم يكن وهمًا !..

الذراع التى قذفها النبات ليجذبنى إليه كانت حقيقة واقعة .. وهذه الآثار دليل قاطع على ذلك ..

ودون أن أدرى ما أفعله ، أغلقت صنبور الماء وجففت جسدى .. غادرت الحمام مبلل الفكر لأرتدى منامتى ، وأجلس فى الصالة أرشف الشاى وأفكر ..

لم يكن وهمًا !..

معنى هذا أن هذا الكابوس حقيقة واقعة .. ومعناه أن (عماد) إما كاذب وإما مخدوع ..

* * *

« لو أن المرء نام فحلم بالفردوس ، ورأى نفسه يلتقط زهرة من هناك .. ثم إنه عند استيقاظه وجد الزهرة فى يده .... أواه !.. ثم ماذا بعد ذلك ؟ »

من قصيدة لـ (كولردج) تذكرتها على الفور ..

* * *

تناول منى د. (صبحى) المدرس بكلية الصيدلة ذلك الأنبوب الذى يحوى السائل الأحمر .. فتأمله فى رفق ثم نظر إلى متسائلًا :

ـ بالطبع يمكننا أن نجرى عليه التحليل الكروماتوجرافى .. ولكن لماذا لا تحاول أن ترى الأنبوب عبر الـ (سبكتروفوتومتر) ؟

فكرة لا بأس بها ولم تخطر لى قط ..

لهذا توجهت معه إلى المعمل حيث باشر إعداد العينة لكلا الاختبارين .. ثم ناولنى أنبوب اختبار يحوى المادة مخففة ومعها عدسة الـ (سبكتروفوتومتر) السوداء الصغيرة ..

سرت إلى النافذة ورفعت الأنبوب أمام النور ووضعت العدسة على عينى لأتمكن من رؤية خطوط الطيف التى ستقطعها خيوط سوداء تحدد نوع المادة ..

قال د. (صبحى) وهو يفرغ سحاحة صغيرة فى أنبوب اختبار :

ـ إن هذه المادة تشبه (الهيموجلوبين)(*) إلى حد غير عادى .. ألا ترى ذلك ؟

ولما لاحظ أننى لم أرد نادانى فى إلحاح :

ـ هيه !.. (رفعت) .. هل هناك شىء ؟

دون أن أدير ظهرى أو أرفع العدسة عن عينى .. همست :

ـ بالفعل .. هناك أشياء ..

ـ عم تتحدث بالضبط ؟

ـ إن هذه المادة لا تشبه (الهيموجلوبين) .. إنها هى (الهيموجلوبين) ذاته !!

....

★ ★ ★

ـ مستحيل !.. أنت تقول إن أصلها نباتى .. أنت تعرف أن جزىء (الكلوروفيل) ..

الصبغ المسئول عن التمثيل الضوئى للنبات ـ يماثل جزىء (الهيموجلوبين) إلى حد غير عادى .. لكن الخلط بينهما لا يمكن أن يحدث ..

(*) الهيموجلوبين : صبغ الدم الأحمر المسئول عن حمل الأكسجين ومنحه للأنسجة .

ـ إن لون (الكلوروفيل) أخضر يا (صبحى) ..

وتركته يحاول فصل المادة بالتحليل (الكروماتوجرافى)، وركبت سيارتى عائدًا إلى دارى ، فما أن دخلت حتى هرعت إلى الهاتف لأطلب (عماد) .. سمعت صوته الرزين يسأل عمن هناك .. فقلت فى لهفة :

ـ (عماد) .. لقد حللت المادة الحمراء .. أنت نباتى التفكير تمامًا لهذا لم تحاول البحث عن (الهيموجلوبين) ، أما أنا فحيوانى التفكير ـ إذا صح هذا التعبير ـ ولقد بحثت عن (الهيموجلوبين) فوجدته !

سمعت صوته يتساءل فى برود :

ـ وما الذى يعنيه ذلك ؟

نافد الصبر صحت فيه وأنا أوشك على الانفجار :

ـ حسن !.. انت تُربّى فى دارك نباتًا وقحًا يؤذى الضيوف ويطلق رائحة مخدرة .. بل ـ الأسوأ ـ تجرى فى عروقه دماء بشرية !

ألا تجد فى كل هذا ما يثير الريبة ؟!

عاد صوته يقول فى شىء من الكبرياء :

ـ كل ما أعرفه يا عزيزى (رفعت) هو أن هذه ظاهرة علمية تستحق أن ندرسها ونحللها .. لا أن نطلق صيحات الهلع ، وإننى لأتوقع منك أن تجد تفسيرًا ..

قلت له مغتاظًا :
- أصدقك القول أننى لا أرتاح كثيرًا لهذا النبات .. ولو كنت مكانك لسكبت فوقه زجاجة (كيروسين) وأحرقته ..
- لحسن الحظ أنك لست مكانى !
لم أصارحه برأيي فى أكذوبته عن (الرائحة المخدرة) ربما لأننى توقعت أنه قد لا يكون كاذبًا بعد كل شىء ..
وفى المساء توجهت إلى (الفيللا) لأقابله وأحدثه عما يعتمل فى ذهنى من هواجس ..
كان البواب النوبى جالسًا يستمتع بأنسام المساء على صوت أغنية من جهاز المذياع ، فحييته .. ردّ التحية متوقعًا أن أطلب الدخول ..
لكنى تربعت على الدكة بجواره وأخرجت علبة سجائرى وقدمت له واحدة رفضها فى عناد لأنه لا يشرب سوى (المعسّل) كما قال ..
كان اسمه (عبد الودود) .. وكان نمطًا رائعًا للرجل الذى شاب رأسه وقلبه من فرط التجارب فلم يعد يبالى بشىء ، ولو كان عندى من الوقت أو سعة الصدر ما يسمحان بالاسترسال لسوّدت أربع صفحات كاملة فى الحديث عنه ، أما وأنا مَنْ أنا من ملل ونفاد صبر فأكتفى بالقول أنه بدأ يثرثر بعد جهد جهيد وبدأ يمنحنى ثقته التى

ضنّ علىّ بها فى البدء باعتبارى ذلك (الأفندى) الفضولى غريب الأطوار الذى يفضل الجلوس مع البوّاب بدلًا من الجلوس مع صاحب الدار ..
وعرفت أنه يقيم فى غرفة صغيرة جوار البوابة مع زوجة هى أقرب للجثث ، وذلك بعد أن تزوج الأولاد ورحل بعضهم عن عالمنا ..
سألته - متظاهرًا بعدم الاكتراث - عن الحديقة ، فقال لى إنه ممنوع من السير فيها لأن (عماد بك) يُعنى بها بنفسه ولا يسمح بأى تدخل ..
- والضيوف ؟.. هل هم أيضًا ممنوعون ؟
بصق على الأرض ومسح بصقته بحذائه الكبير .. وغمغم :
- ضيوف ؟.. لا أحد يجىء هنا .. أنت أول من يدخل هذه الحديقة منذ عشر سنوات !
أطلقت صفيرًا ينم عن الدهشة .. ثم سألته فى حذر :
- إذن لم يرحب (عماد بك) بسماحك لى بالدخول هنا فى المرة السابقة ؟
- ياااااه !
قالها بصيغة المبالغة .. وأردف :
- لم يكف عن لومى على تركك تجتاز الحديقة وحيدًا .. إن (عماد بك) يأبى أن يجتازها أى إنسان حتى أنا ..

وحتى تموين الأسبوع من اللحوم أتركه جوار البوابة حتى يأتي ويأخذه هو ..

أثارت هذه النقطة فضولى :

- تعنى تموين الأسبوع من الأطعمة عامة ؟

- بل من اللحوم .. باقى الأطعمة يشتريها هو بنفسه .. أما اللحم فأشتريه له بسعر رخيص من بقايا الذبائح فى (السلخانة) ..

- بقايا ذبائح ؟!.. وهل يأكلها هو ؟

هزّ رأسه فى لامبالاة أقرب للغباء .. وقال :

- يأكل بقايا الذبائح ؟.. كنت أظنك متعلمًا وسريع الفهم !..

- وأنا كذلك .. إذن ماذا يفعل بها ؟

تثاءب ورفع قدمه على الدكّة ورفع صوت المذياع قائلًا :

- وما شأنى أنا بذلك ؟.. هو حرّ فيما يفعله .. والآن حان الوقت لتدخل إليه أو لتنصرف .. إننى أعرف أساليب الفضوليين هذه .. صدقنى أنا أعرفها تمامًا !

....

* * *

٥ ـ كشف الأوراق ..

فى هذه المرّة خرج (عماد) ليستقبلنى عند باب (الفيللا) .. كان يرتدى روبًا أنيقًا من تحته القميص وربطة العنق فبدا كزئر نساء فى أحد الأفلام المصرية العتيقة ، خاصة وأن ثراءه وحياته وحيدًا يثيران التساؤلات فى الأذهان .. وهنا خطر لى أن المرأة التى يفوتها قطار الزواج يسميها المجتمع عانسًا وينسى أمرها تمامًا ، أما الرجل الذى يفوته القطار ـ مثلى ـ فإنه يظل فريسة التكهنات والظنون حتى يواريه القبر .. ليس المجتمع قاسيًا على النساء إلى الحدّ الذى يحسبنه !..

نظر (عماد) إلى البواب العجوز نظرة استكشافية سريعة ، ثم صافحنى واقتادنى إلى الداخل غير ناس أن يسألنى :

- أنت هنا من زمن ؟

وذلك ـ بالطبع ـ ليتأكد مما إذا كان البواب قد ثرثر أكثر من اللازم .. فقلت :

- وصلت منذ ثوان ..

كنا نسير بين الأشجار قاصدين المنزل الغافى بينها ، وكنت شغوفًا بأن أعود إلى البقعة التى قابلت فيها النبات أول مرة .. لكنه كان مقتضبًا وفاترًا ـ (عماد) لا النبات طبعًا ـ إزاء هذه الرغبة .

ـ فيما بعد .. فيما بعد !

قالها لى وهو يقودنى إلى باب المنزل الموارب ..

بعد ثوان .. صوت ضربات القدر الذى أنجبته عبقرية (بتهوفن) يدوى عبر سماعات متناثرة فى أرجاء القاعة ، وكأس من عصير الليمون المثلج بين أصابعى .. و (عماد) يجوب المكان فى شىء من العصبية ..

قلت له بعد دقائق :

ـ (عماد) ..

ـ هم م م م ؟

ـ إذا أردت ألا يصيبنى الجنون ، فاجلس بحق السماء !

جلس بعد تردد .. فواصلت أسئلتى :

ـ ماذا تفعل بكل هذا اللحم الذى يجلبه البواب ؟!

كأنما كان ينتظر هذا السؤال ، لم ينكر شيئًا ولم يسألنى كيف عرفت ..

بل أجاب فى كياسة وهو يرشف كأسه :

ـ قلت لك أن نبات الـ (موكاسا) لا ينمو إلا فى تربة بها مادة عضوية متحللة .. وأنا لن أقتل كلبًا وأدفنه كل يوم !

ـ إذن هناك أكثر من نموذج لهذا النبات فى دارك ؟

ـ وفى الحمام .. وفى المكتب .. وفى غرفة النوم .. إننى أراه جميلًا ولا يمكن لك أن تحاسبنى على ذوقى الخاص ..

ـ والرائحة التى تسبب الهلاوس ؟

ـ حسن .. لنقل أننى اعتدتها كما اعتاد (راسبوتين) السمّ(*) !

ساد الصمت للحظات .. فلم يعد هناك ما يقال ..

بعد برهة أشعلت لفافة تبغ ، وقلت له ضاغطًا على حروفى :

ـ (عماد) .. أنا أعرف أنك تخفى عنى شيئًا .. أنت تعرف كما أعرف أن هذا النبات غير طبيعى .. ومهاجمته لى فى المرة السابقة لم تكن وهمًا .. الثقوب التى فى معصمى تقول إنه لم يكن وهمًا .. لقد كان يحققنى بمادة هى إلى (الكورار) أقرب .. ، وتعرف أنه كان يتحرك ..

(*) يقال أن الراهب الروسى المخيف (راسبوتين) كان يدرب نفسه على تناول السموم عن طريق جرعات متدرجة ، ولهذا فشلت كل محاولات قتله بالسمّ مما اضطر أعداءه إلى قتله رميًا بالرصاص .

بل أنت تمنع البواب والضيوف من السير فى الحديقة .. لماذا ؟.. لأنك تعرف جيدًا الخطر الحقيقى المتربص وراء هذا النبات ..

كان نفسى قد انقطع من الانفعال فالتقطته .. ثم قلت فى رزانة :

ـ (عماد) .. يجب أن تخبرنى بكل ما تخفيه وإلا لن أكون ذا عون لك ..

نظر لى فى حيرة هنيهة ..

ولثوان ظننته موشكًا على الكلام لكن ظنى خاب .. اكتفى بأن قال وهو يدير ظهره لى :

ـ (رفعت) .. سبق لك أن سألتنى عن عدم زواجى وقلت لك إننى لا أحب الخداع .. هل فهمت ما أعنيه وقتها ؟

قلت فى كياسة محاولًا أن أبدو رقيقًا :

ـ بالطبع فهمت ..

همس بصوت رصين يضغط على كل حرف من كلماته :

ـ لقد أحببت تلك الفتاة كثيرًا .. ولأننى أحببتها قمت بإجراء التحليلات اللازمة وكانت النتيجة واضحة : من المستحيل أن أكون أبًا ولا زوجًا .. ولأننى أحببتها كثيرًا أخبرتها بكل شىء .. فاختارت الانفصال لأنها لن تتخلى

أبدًا عن حلمها بالأمومة وهذا سلوك شريف منها بالطبع ..

هل كان يبكى ؟.. لا أدرى حقًا لكن غمامة ما تسربت إلى نبراته وهو يستطرد :

ـ هكذا ترى .. لن أمشى أبدًا فى الشارع ممسكًا بيد صغيرة مرتجفة لطفل أعرف أنه من صلبى ، ولن أهرع فى الليل باحثًا عن طبيب توليد أو طبيب أطفال ، ولن أعود لدارى حاملًا دمية لطفلة تنتظرها فى لهفة .. لقد تساوت الأنصبة فى الحياة كالعادة .. فالثرى الوسيم الناجح لا يُنجب .. وهو يتمنى أن يبادل وضعه مع البواب النوبى العجوز ..

لا داعى للقول أن أحدًا من أسرتى لا يعرف هذا الموضوع ، وهم جميعًا يظنون أننى أرفض الزواج من ابنة خالتى لأننى أحيا حياة عزاب ماجنة .. وكلهم قاطعونى أو عاملونى بجفاء لكنى لم أجرؤ على إخبارهم بالحقيقة قط ..

واستدار لى راسمًا ابتسامة مفتعلة :

ـ ولكنى قلت لك من أنا .. إننى أفتش عن المستحيل وغير الممكن .. أهيم حبًا بشىء لم يُخلق بعد .. ولهذا غدا نبات الـ (موكاسا) هو ابنى الشرعى ..

لمَ لا ؟.. لقد ربيته وعلمته وأطعمته .. فهل تعرف شيئًا فى كل هذا لا يمارسه الآباء ؟.. ولأنه ابنى فأنا لن أتخلى

عنه .. ولأنه ابنى أدارى عيوبه وأجاهد كي أصلحها .. ولأنه ابنى فلن أسمح لأحد أن يقاسمنى فيه أو يأخذه منى أو ينصحنى بتدميره !..

ساد الصمت القاعة سوى من موسيقا (بتهوفن) الشجية ..

قلت له بعد ثوان وأنا أشعل سيجارة :

- وإلى متى يظل هذا الوضع ؟.. متى تنشر أبحاثك إذن ؟
- حين أعرف كيف يمكن الاستفادة بما عرفته ..
- وأية فائدة تُرجى من نبات يعضّ الضيوف ؟.. إنك لن تستخدمه لحراسة البيوت على ما أظن ..

ضحك حتى أدمعت عيناه .. ورشف ما تبقى في كأسه من العصير ثم قال :

- ألم تعرف هذا بعد ؟.. لقد أنقذنى من لصّين !..
- .... ؟!
- بالفعل .. إن للنبات رائحة غير محسوسة لكنها جذابة تغرى الآخرين بالاقتراب منه ـ ولعل هذا هو ما دفعك نحوه لا شعوريًا فى تلك الليلة ـ وكان هذا هو ما حدث للصين اللذين اقتربا منه أكثر من اللازم و .. هوب !.. أنا لم أر شيئًا .. فقط سمعت صرخة رعب هائلة فى تلك الليلة فهرعت إلى الحديقة لأرى رجلين يهرعان

فرارًا ويثبان من فوق السور .. وحين ذهبت إلى مكان النبات وجدت آثار دماء على الأرض وجزءًا منتزعًا من ذراعه التى مدّها ليجتذب أحدهما ، فلو لم يكن الآخر موجودًا لكانت مأساة ..

وانفجر يضحك حتى تقطعت أنفاسه :

- تصوّر ما شعره هذان اللصان اليائسان وما يفكران فيه حتى هذه اللحظة !!.. أنت لم تقل شيئًا جديدًا حين قلت إن الـ (موكاسا) يصلح لحراسة البيوت ..

ثم إن (عماد) نهض إلى دولاب أنيق موجود بالقاعة ، فأخرج جهاز عرض سينمائى للأفلام الصغيرة (١٦ مم) ، وبكرة فيلم .. ثم وصل الجهاز بالقابس وركّب الشريط وأظلم القاعة ..

سمعت صوته فى الظلام وراءه خلفية من سيمفونية (بتهوفن) التى لن تنتهى أبدًا كما هو واضح :

- المشكلة هى أن هذا النبات خجول جدًا !
- خجول ؟..
- هو يتصرف كطفل يأبى أن يغنى أمام أصدقاء أبيه .. ولقد رفض الـ (موكاسا) كل محاولاتى لتقديم فرائس حية له ، لكنى كنت أجده قد فرغ منها دائمًا حين أعود إليه بعد دقائق .. لهذا قمت بتصوير هذا الفيلم ـ دون علمه ـ لأرى

ما يفعله حين يرى أرنبًا صغيرًا .. ولسوف ترى الآن كل شيء ..

بدأ الفيلم يدور .. انبعث الشعاع تتراقص فيه دقائق الغبار ودخان التبغ ليرتمي فوق الحائط الأبيض ..

وعلى الشاشة المرتجلة رأيت مشهدًا بالأبيض والأسود يمثل هذا النبات بشكله العجيب البشع .. وكان هناك أرنب صغير وديع يقف جوار الأصيص غير قادر - وغير راغب - على الابتعاد ..

وهنا بدأت الأوراق ترقص رقصتها المجنونة التي ألفتها .. تهتز .. تتمايل .. تتأرجح يمينًا ويسارًا ..

قال (عماد) معلقًا على المشهد :

- وكما ترى .. هذا نوع من التنويم المغناطيسي للضحية .. فهي تُباغت بالحركة غير المتوقعة وتقرر أن تنتظر ساكنة لتعرف أكثر ..

الذراع الكابوسي العتيد يخرج من بين الأوراق كثعبان يزحف نحو فريسته ..

- هذا النوع من الأوراق المتحورة يخرج نحو الفريسة ليؤدي دورين ..

الذراع يزحف نحو الأرنب البائس ليلتف حول عنقه .. يحاول الأرنب أن يتراجع .. يتقهقر .. يقوم بحركات مثيرة للشفقة .. ولكن ..



الذراع يزحف نحو الأرنب البائس ليلتف حول عنقه .. يحاول الأرنب أن يتراجع .. يتقهقر .. يقوم بحركات مثيرة للشفقة ..

- الدور الأول هو تخدير الفريسة بمادة راخية للعضلات عديمة الاستقطاب .. ولعلها هى (الكورار) كما خمنت أنت ..

الأرنب يتصلب .. ثم يتخاذل تمامًا بعد أن شلت عضلاته الإرادية تاركًا جسده تمامًا للذراع المشئوم يتلمسه ويقلبه يمينًا ويسارًا ..

- أما الدور الثانى فهو .....

وهنا لم أصدق ما أراه ..

تصلبت على حافة مقعدى وأنا أرى شيئًا أسود يتسرب عبر العروق البارزة من ذراع النبات صاعدًا من جسد الأرنب إلى جذع النبات ، وبعين الخيال ترجمت هذا اللون الأسود إلى أحمر ..

- يقوم الذراع بامتصاص دماء الفريسة ببطء شديد ..

وفى اللحظة التالية رفع الذراع جثة الأرنب ليلقى بها بين الأوراق السوداء المكللة بالأشواك .. وانطبقت الأوراق حول الجسد وأخذت تأتى بحركات شبيهة بالمضغ البطىء المتلكئ ..

- والآن .. المرحلة التالية هى مرحلة الافتراس الشبيهة بأسلوب نبات الـ (ديونيا) .. إنزيمات الـ (ببسين) تذيب العضلات والأوتار والغضاريف .. فلا يبقى سوى ..

عجينة من الفراء المختلط بالعظام هى ما تحول إليه هذا الكائن الوادع الذى كان يلهو ويمرح منذ دقائق ..

- وهكذا حصل هذا النبات النشط على حاجته من (النتروجين) ومن مادة (الهيموجلوبين) .. وأثبت لنا أنه يقف بالفعل عند مكان فاصل بين المملكتين الحيوانية والنباتية ..

بدأت الخدوش تتكاثر على الشاشة أى أن نهاية العرض قد دنت ثم ابيضت تمامًا .. وسمعت (عماد) يهتف فى مرح :

- ألم يكن هذا رائعًا ؟!

ما أن استعدت قدرتى على الكلام حتى هتفت مستنكرًا :

- (عماد) !.. إن هذا ليس نباتًا .. إنه شيطان حقيقى وعليك أن تتخلص منه فورًا !

- قلت لك إنه ابنى !..

- أتوسل إليك يا (عماد) .. أنا لا أمزح .. إن هذا المسخ سيقتلك يومًا ما تاركًا بعض الشعر الأشيب وروبًا أنيقًا ..

ابتسم فى ثقة ونهض ليبدل الأسطوانة ويضىء الأنوار :

- الآن حان وقت (موتسارت) .. دعنى أؤكد لك

يا عزيزى (رفعت) أن هذا النبات أذكى من أن يؤذى راعيه رقم واحد .. ويعرف أنه كان روحا حبيسة فى بذور فأطلقت سراحها ومنحتها كيانا .. إن (بابا) يقدم له اللحوم الطازجة والحيوانات البرية ويحجب عنه المتطفلين .. فكيف يؤذيه ؟!..

نظرت إلى الدولاب نصف المفتوح من خلفه .. وسألته فى براءة :

- أرى لديك المزيد من الأفلام .. فماذا تحوى ؟

بدا عليه الوجوم فأدركت أنه سيكذب .. حتما سيكذب ..

- لا شىء .. لا شىء على الإطلاق .. مجرد ذكريات لا تعنى شيئا ..

....

وذابت عيناه فى الفراغ ..

* * *

٦ - قريتى من جديد ..

دوى رنين الهاتف الطويل المتقطع فهرعت لأرد لاهث الأنفاس .. واجف القلب .. حافى القدمين .. واثقا من المصيبة التى ستأتينى عبر سلوك هذا الجهاز المزعج ..

سمعت صوت الطقطقة ثم الصفير .. ثم صوت (رضا) أخى يصيح :

- (رفعت) .. (رفعت) .. إن أمى ......

ثم تلاشت حروفه فى عواء كعواء الذئاب فأدركت أن البكاء غلبه .. ولم أحتج لكثير من الذكاء كى أعرف ما يريد قوله ، لكن واحدا كان يقف بجواره تناول منه السماعة ليقول لى بلهجة حازمة - لهجة الرجل الذى يعرف ما ينبغى عمله - ما كنت فى غير حاجة لسماعه :

- د. (رفعت) ؟

- بالطبع - عليك اللعنة - وإلا فمن أنا ؟

- إن الحاجة (أم رضا) قد .. صبيحة اليوم .. نحاول من فترة .. الخطوط .. أنت رجل ناضج .. أخوتك .. الجنازة .. إلخ .. إلخ ..

كان الوغد قاسيا .. قاسيا إلى حد لا يوصف ..

تمهل قليلا أيها الشيطان .. فأنت لا تخبرنى بنتائج مباريات كأس العالم .. بل أنت تخبرنى بوفاة أمى .. أمى .. ولكن .. لماذا لا أشعر بالأسى ولا الذعر المتوقعين ؟.. لابد أن قلبى لم يصله الخبر من عقلى بعد بسبب رداءة التوصيل عبر الخطوط الهاتفية .. ويل لك يا قلبى البائس حين تعرف الحقيقة كاملة .. وهى أنك ـ للمرة الأولى ـ قد غدوت بلا أم ..

نعم أنا رجل ناضج متعلم فى منتصف العقد الخامس .. ولكن ما علاقة كل هذا بالحزن ؟

الحزن البارد الصارم الذى يحيل كل الناس أطفالا .. والرجل ما زال يتكلم ......

* * *

رحمة بأعصاب القارئ سأقاوم رغبتى الشديدة فى وصف كل ما حدث وكل ما قيل .. لأننا نقرأ كتابا اسمه (أسطورة النبات) وليس (آلام رفعت) .. ولا أحسب أن أحزانى تهم شخصا غيرى ..

إن هناك لذة شديدة فى وصف الأوجاع لدى كل البشر ، يكفيك أن تجلس جوار أى رجل فى الحافلة كى يبدأ فى وصف صداع رأسه ومشاكله مع التبرز وآلام النقرس فى إصبع قدمه اليمنى ..

إنها غريزة كاسحة لكنى ـ لأجلكم ـ سأقاومها ..

فقط تذكروا أننى فقدت أمى فى عام ١٩٦٨ حين كنت أنا فى الرابعة والأربعين من عمرى ..

* * *

مرت أيام طوال علىّ فى (كفر بدر) ..

أقابل عشرات الوجوه .. وأصافح مئات الأيدى وأرى اللون الأسود فى كل مكان .. وأزجر (رئيفة) و (نجاة) لأمنعهما من النواح مائة مرة فى اليوم(*) .. إن تلك الأخيرة لا تشعر بذرة حزن لكنها قواعد المجاملة الصارمة فى الريف التى تحتم على النساء إطلاق بعض الصرخات من حين لآخر وإلا اعتبرن قليلات الأصل ..

فى تلك الظروف لا أدرى لماذا ـ ولا كيف ـ تذكرت (عماد) ..

وتساءلت عما يفعله فى هذه الآونة مع نباته ..

ثم أننى أقصيت الخاطر بعيدا إذ بدا لى غير ملائم على الإطلاق ..

* * *

كعادتى كنت أتذكر الأسماء بصعوبة خارج دائرة أسرتى ، وكان (طلعت) يقدم لى عشرات الأشخاص طيلة

(*) أرجو ألا تكونوا نسيتم أن (رضا) هو أخى وزوجته (نجاة) ، و (رئيفة) هى أختى وزوجها (طلعت) .

الوقت بأسلوب يوحي بأنني أعرفهم وصريع فى غرامهم ..
وأنا لا أذكر أننى رأيتهم أصلًا ..

اليوم قدم لى الحاج (فوزى) وولده (صالح) المفترض أنهما جيراننا من زمن، من ثم صافحتهما فى حرارة وشكرتهما على مشاركتهما في مأساتي، وجلسنا نحسو القهوة ونصغى لآيات القرآن الكريم .. حين قال الحاج (فوزى) وهو يضع فنجانه فى الطبق :

ـ أمس قابلناك يا د. (رفعت) فى الحقل الشرقى .. ناديناك لكنك لم تصغ إلينا .. لعلك لم ترنا قط ..

ـ معذرة .. ولكن لابد أن هناك خطأ ..

ـ لا خطأ هنالك .. كان ذلك فى العاشرة مساءً ..

قلت فى شىء من نفاد الصبر :

ـ أنا لم أغادر الدار مساء أمس لحظة واحدة ..

تبادل الحاج وولده نظرات معناها ـ بما لا يقبل الشك ـ أننى أكذب لسبب لا يدريانه .. وأن من الحكمة عدم الإصرار على ما قالاه ..

من ثم أشعل الحاج السيجارة التى قدمتها له .. وغمغم متحاشيًا النظر إلىّ :

ـ يجوز ..

قال (طلعت) مؤمنًا :

ـ إن العين تخطئ ..

أما أنا فلم أعط اهتمامًا كبيرًا لهذه النقطة خاصة وأننى واثق تمامًا فى أننى لم أفعل ، فلست مسئولًا عن أوهام هذا الحاج البصرية وولده ..

لكننى بدأت أشعر بالقلق فى تلك الليلة حين خرجت مع (طلعت) إلى الحقل الشرقى ليرينى المزروعات الجديدة التى استحدثها ويحاول إنجاحها ، ذلك الموضوع الذى ظنّ أنه سيرفه عنى قليلًا رغم أنه لا يعنينى على الإطلاق ..

وهنا توقف فى حيرة وجثا على ركبتيه ليتفحص شيئًا ما وجده على الأرض .. وسمعته يغمغم :

ـ ما هذا .. ؟

ومدّ يده ينتزع نباتًا وجده بين سيقان النباتات الأخرى .. وأعطاه لى لأتأمله .. وقال وهو ينهض :

ـ هذا نبات شيطانى لم أره من قبل .. غريب !.. أقسم أنه لم يكن هنا البارحة ..

أما أنا فما أن أمسكت بالنبات بين أناملى حتى توترتُ .. مددت يدى إلى جيب السترة بحثًا عن نظارة المسافات القريبة (التى بدأت استعمالها هذا العام) ووضعتها على أنفى ..

نعم .. أنت ترى مثلى تلك الأوراق السوداء ذات الحواف الدامية المجللة بالأشواك .. أنت مثلى تقشعرّ من الملمس الكريه .. وأنت مثلى لم تنس هذا النبات رغم طول المدة .. إنه هو !..

هو (الموكاسا نيجرا) بعينه ولاشك فى ذلك ..

أما كيف جاء هنا .. وكيف نما بهذه السرعة ؟.. فكلها أسئلة بلا إجابة ولا أتوقع لها إجابة ..

المهم أننى و (طلعت) شرعنا ننتزع هذه الأوراق الشنيعة من جذورها .. وكدنا نكتفى بذلك لولا أننى طلبت منه رجاءً حارًا أن يساعدنى على حرقها .. ولم أفسر له طبعًا سبب حماستى ..

وبالعقل سكبنا بعض (الكيروسين) فوقها وأشعلنا عود ثقاب ، وجلسنا فى ظلام الليل نتأمل الوهج المتراقص زائغى الأعين ..

وما أن انتهى الوهج ولقت الجذوة مصرعها .. حتى مدّ (طلعت) يده وسط الرماد الساخن والتقط بحذر شيئًا ما بين إبهامه والسبابة :

ـ يا لغرابة هذه البذور !

قالها وناولها لى فتأملتها فى كفى ..

كانت ذهبية اللون خشنة الملمس أقرب ـ فى الحجم والشكل ـ إلى حبوب (البازلاء) لكنها خشنة كما قلت ممتلئة بالبثور .. وكانت صلبة إلى حدّ لا يصدق .. حتى حين ضغطت على واحدة منها بين أسنانى (وعضلات الفك بالمناسبة هى أقوى عضلات الجسم) لم أجد أدنى استجابة منها ..

لن يدهشنى أن تقاوم هذه البذور لهيب النيران ..

ـ إذن كيف نتخلص منها ؟

ـ سنلفها فى شريحة من القصدير وندفنها بعيدًا ..

نهض (طلعت) يبحث عن قصدير فى حين أخذت أحفر الأرض فى موضع جذور النبات مدفوعًا بخاطر مفاجئ داهمنى .. وسمعت صوته الغليظ يتساءل من وراء ظهرى :

ـ عم تبحث يا دكتور ؟

ـ عن .. ها هى ذى !.. لقد وجدت ما أريده ..

اقترب ليرى ما هنالك على ضوء القمر الفضىّ .. وتساءل فى حيرة :

ـ غريب !.. من فعل هذا ؟

ـ فعلها من زرع الحبوب ..

ـ يدفن جثة قطة ؟.. يا له من عمل غريب ..

ـ إنه يعرف ما ينبغى عمله .. هذا هو كل شىء ..

ـ تعال يا دكتور لنعد للدار .. لقد تشاءمت من هذا الذى رأيناه وإن كنت لا أرى لذلك سببًا ..

نفذت طلبه فى صمت بعد أن تخلصنا من البذور .. ولم أصارحه أننى أنا الآخر قد تشاءمت .. وأنا الآخر لا أرى لذلك سببًا ..

★ ★ ★

عدت إلى غرفتى بالطابق العلوى وقد جاوزت الساعة منتصف الليل ..

ذات الفراش المتهدم الذى ظللت مصلوبًا عليه أسبوعين يوم نادتنى النداهة .. الفارق الوحيد هنا هو أن أمى لن تحضر لى العشاء وتلومنى على إجهاد عينى بالقراءة أو عدم الزواج أو .. أو ..

خلعت ثيابى واخترت جلبابًا أبيض مريحا لأنام فيه ، وهنا استرعت انتباهى أجسام غريبة صلبة فى جيب قميصى العلوى .. فمددت يدى أتفحصها ..

كانت بذورًا .. بل بذورًا ذهبية اللون .. وللمزيد من الدقة بذور نبات الـ (موكاسا نيجرا) ..

من أين جاءت هذه الأشياء ؟

قد يقول قائل إنها البذور التى وجدتها و (طلعت) فى الحقل هذا المساء .. لكن لا .. لقد وجدنا اثنتى وعشرين بذرة تأكدنا بعناية من دفنها بعد تغليفها فى غلاف يمنعها من الإنبات .. لا يمكن أن تكون هى ..

لقد كنت أرتدى هذا القميص حين جئت للقرية ، وكنت أرتديه حين زرت (عماد) فى المرة الأخيرة (أعرف أن باقته اتسخت لكنى لا أعبأ بهذه التفاهات) .. معنى هذا أن هذه البذور جاءت معى حين جئت للقرية ..

★ ★ ★

أمس قابلناك يا د. (رفعت) فى الحقل الشرقى .. ناديناك لكنك لم تصغ إلينا .. لعلك لم ترنا قط ..

★ ★ ★

هل هما على حق ؟..

لو كانا على حق فإن هذا له معنى واحد .. أننى أنا من بذر البذور فى الحقل الشرقى مسلوب الإرادة منومًا مغناطيسيًا ..

وبالتأكيد أكون أنا من دفن القطة ليوفر (النتروجين) اللازم للبذور .. ومن يدرى ؟.. ربما أنا من قتلها كذلك !..

ولكن كيف ؟.. ولماذا ؟

القشعريرة من المجهول ـ تلك القشعريرة السرمدية ـ تتسلق عمودى الفقرى ، وعدم الفهم الممتزج بالغباء يطل من عينى ..

لماذا فعلت ذلك ؟.. وأية قوى مجنونة حركتنى ؟

هذه المرة ارتديت الجلباب الأبيض ، وهرعت خارجًا من الدار قاصدًا الحقل الشرقى بحثًا عن آثار تدلنى على أننى من بذر البذور ..

وفى الظلام غير الدامس ـ حيث كان القمر مكتملًا ـ رأيته منحنيًا على الأرض يحفرها بأظافره فى لهفة وعيناه زائغتان ..

دنوت منه فى حرص .. ووقفت أمامه بضع ثوان فلم يلحظ وجودى ..

كان هذا هو (طلعت) ..

لقد عاد إلى الحقل خلسة ليسترد البذور التى دفنها بنفسه منذ ساعة !!

* * *

٧ ـ كابـوس ..

وهكذا جذبت (طلعت) من ذراعه المشعر الضخم عائدين إلى الدار .. ، وفهمت منه ـ رغم عجزه عن التعبير ـ أن رغبة ملحة استبدت به كى يأتى بهذا العمل ..

لقد اتضحت الصورة إذن ..

هذا النبات قد فاق كل ظنونى وتوقعاتى ..

إن شيئًا ما فيه ـ ربما رائحة معينة ـ تحمل رسالة صامتة إلى كل من يتعامل معه .. وهذه الرسالة تقول بوضوح :

ـ ساعدونى على التكاثر !

ويكون لهذه الرسالة مفعول السحر .. فسرعان ما يحمل المرء بعض البذور ولربما قتل حيوانًا صغيرًا كى يدفنه جوارها ، ويتسلل فى ظلام الليل ليبذر البذرة المشئومة ..

البذرة التى تصحو بعد يوم واحد فحسب ، وتبحث عن أحمق تحيطه بذراعها كى تحقنه بـ (الكورار) وتمتص دمه !

هكذا تستمر الدورة الشيطانية التى بدأها (عماد) دون قصد ..

وحتى (عماد) نفسه لا يدرى أنه لا يحب هذا النبات قدر ما هو مسحور به .. وهو ينشر بذوره بنشاط فى كل مكان - ولربما هو من دسها فى جيبى - لأنه لا يملك سوى فعل ذلك ..

لقد استعبده النبات تمامًا ..

بل واستعبدنى واستعبد (طلعت) ..

ولكن .. هل هناك آخرون ؟!

★ ★ ★

تلقيت الجواب فى المساء ذاته .. مساء اليوم الذى وجدت (طلعت) فى الحقل عند الفجر ..

كنت جالسًا فى مدخل الدار مع رجلين أو ثلاثة (فقد بدأت أعداد المعزين تنحسر) وكنا نرشف القهوة وندخن ، حين هرع رجلان إلى الدار داخلين من الباب المفتوح ..

كانا يلهثان ممتقعى الوجهين ولسان حالهما يقول إن هناك كارثة ..

- د. (رفعت) .. نحن بحاجة إليك فورًا ..

- ولكن ....

لكنهما لم يكونا على استعداد لقبول أعذار ، وقد نظرا إلى الرجلين الجالسين معى فى لهفة مرددين :

- لا مؤاخذة يا رجالة .. إن الفتاة تموت !

وهكذا لم يعد أمامى مناص من الاستجابة ، أحضرت حقيبتى وأخبرت (رئيفة) أننى ذاهب .. ثم فتحت لهما باب سيارتى كى يركبا ..

وانطلقنا - بسرعة البرق - إلى الدار ..

من اللحظة الأولى سقط قلبى فى قدمى حين سمعت الصراخ والعويل ثم أدركت أن المريضة لم تمت بعد لكنهم يصرخون باعتبار ما سيكون !..

وبصعوبة اخترقنا الزحام ..

إلى غرفة ضيقة حقيرة دخلنا لأجد فلاحة ممزقة الثياب والخدين تعول دون انقطاع ، وعلى فخذيها أراحت رأس طفلة فى العاشرة من عمرها .. طفلة شاحبة كالبورص - إذا جاز التعبير - تجاهد كى تلتقط أنفاسها .. وأدركت أن فقر الدم هو السبب فى عدم ظهور زرقة على شفتيها ..

ما العمل إذن ؟

إن الطفلة مريضة جدًا ولكنى لا أجد لمرضها اسمًا ..

- أين وجدتموها ؟

لم ترد الأم .. أما الأب فقال فى هستيريا :



وعلى فخذيها أراحت رأس طفلة فى العاشرة من عمرها .. طفلة شاحبة كالبُرص ــ إذا جاز التعبير ــ تجاهد كى تلتقط أنفاسها ..

ـ فى الحقل منذ ساعة .. ألن تنقذها ؟.. هيَا افعل شيئًا !..

لم أردّ عليه محاولًا استجماع تفكيرى .. ليست هذه أعراض تكسير دم .. بل هى أقرب إلى أعراض النزف .. ولكن من أين ؟.. لاتوجد فتحات نازفة فى جسدها الصغير ..

وهنا نظرتُ إلى ذراعها فوجدت ....

إننى أعرف هذه الثقوب وأذكرها ..

أذكر جيدًا ذلك الذراع الذى ترك ثقوبًا مماثلة على ذراعى أنا ..

إذن هى تعرضت لنبات (موكاسا) لا أدرى كيف ولا أين ولا يهمنى كثيرًا أن أعرف ولا وقت لهذا ..

سأفترض أن هذه حالة (أنيميا) حادة مصحوبة بـ .. بتسمم مادة شبيهة بـ (الكورار) .. المادة التى يحاول النبات شلّ عضلات فرائسه بها .. وهذا يعنى أنها مادة مرخية للعضلات عديمة الاستقطاب .. كذا قال (عماد) ..

فلتساعدنى السماء .. إننى مقبل على أكبر مغامرة فى حياتى وهى إعطاء علاج لمادة لا أعرف حقيقتها تمامًا سوى بالحدس !

تناولت أمبولًا من (الأتروبين) ـ كأى طبيب تخدير محترف ـ وحقنت به الفتاة ، ثم عبأت أمبولًا من مادة الـ (نيوستجمين) وبدأت إعطاءه ببطء شديد وريديًا .. فهذه المادة هى الترياق الوحيد لمادة الـ (كورار) ..

للأسف لا أذكر حساب الجرعة للأطفال بالضبط .. لكنى سأعطيها نصف الأمبول ..

فما أن انتهيت حتى أطلقت الطفلة شهقة عالية .. وسكنت تمامًا !..

وسمعت الأب يصرخ فى لهفة :

ـ لقد ماتت يا دكتور !.. قتلتها الحقنة !!

★ ★ ★

أخيرًا عاد قلبى يمارس عمله الذى ظل يؤديه أربعة وأربعين عامًا ولم يتكاسل عنه سوى مرات معدودة آخرها هذه المرة !..

لقد بدأ تنفس الطفلة ينتظم بعد أن استعادت عضلات صدرها القدرة على الحركة .. الشيطانة !.. كادت تقتلنى قتلًا ..

لم يروا توترى ولا لهفتى لأنهم كانوا يرمقون المشهد فى خشوع ..

وأخذت الأم تحتضن الطفلة دامعة العينين ..

فما أن استعادت حنجرتى القدرة على إخراج الأصوات ، حتى قلت فى حزم :

ـ لم ينته الأمر بعد .. إنها تحتاج إلى الدم سريعًا .. يجب أن ننقلها إلى المستشفى ..

وفى لهفة حملنا الطفلة إلى سيارتى ، وشرعنا ننهب الطريق إلى المدينة قاصدين المستشفى .. وبالطبع ـ نظرًا لنحسى التقليدى ـ وجدنا أن الفصيلة الوحيدة التى توافق فصيلة الطفلة هى فصيلتى !..

فكان أجرى على الفحص هو استنزاف دمى ، ثم بالطبع نسى أهلها فى غمرة الأحداث أن يسألونى عن أجرى وخجلت أنا من مطالبتهم به .. إنهم أهل قريتى وهذا حقهم الطبيعى ..

لقد تحسنت الفتاة وهذا يكفينى ..

لكننى لست مطمئنًا تمامًا لما حدث .. ومن حقى الطبيعى بدورى أن أعرف كيف وصلت هذه الطفلة إلى النبات ، أو ـ بمعنى أدق ـ كيف وصل النبات لها ؟!

★ ★ ★

قال لى عم الطفلة وهو يقدم لى سيجارة :

ـ ثق يا دكتور أن جميلك فى أعناقنا إلى الأبد ..

فأدركت أننى لن أنال أجرًا منهم إلى الأبد !..

لا بأس .. المهم الآن يا عمها أن تخبرنى بالمكان الذى كانت فيه حين وجدتموها .. وهل حقًا لم تروا ما يريب مثل نبات مفترس أو شيء من هذا القبيل ؟..

إن حالة الفتاة لا تسمح بأية أسئلة ..

كنا نسير بين النباتات فى قطعة الأرض الخاصة بتلك الأسرة ، ورأيت الرجل يشير إلى بقعة معينة ويغمغم :

ـ هنا وجدناها بعد أن سمعنا صراخها ..

ـ ولم يكن هناك شيء معين يلمسها ؟

ـ لا ..

وكان ما أبحث عنه موجودًا ..

الأوراق السوداء المشنومة بحوافها الحمراء المجللة بالأشواك كأنما تنتظر من يوقعه حظه العاثر بينها ..

ها هو ذا نبات (موكاسا نيجرا) القميء فى هذا المكان الذى لم آت إليه من قبل وبالتأكيد لم يأت (طلعت) إليه ..

إن معنى هذا هو أن العدوى قد انتشرت ..

هناك آخرون يحملون البذور لينثروها هنا وهناك غير عالمين بحقيقة ما يفعلون ..

ـ لم أر هذا النبات من قبل ..

قالها الرجل وهو ينحنى ليتفحص الأوراق السوداء ، ثم إنه انتزعها من جذورها .. حزمة صغيرة يمكن جمعها فى قبضة اليد ـ فقد كان النبات وليدًا ـ لكنها كادت تودى بحياة طفلة ..

وفجأة سمعته يهتف فى اشمئزاز ، وهو يرمى بالنبات على الأرض :

ـ أعوذ بالله !.. ما هذا ؟!

كانت قطرات من الدماء تتساقط من الجذور المنتزعة لتسقط فوق التربة فتبللها ، إن الوحش لم يهضم وجبته الأخيرة بعد ..

ـ هل هذه دماء ؟

قلت له فى كياسة وأنا أشعل سيجارة :

ـ بل هى إفراز طبيعى .. فقط دعنا نحرق هذا النبات الآن ..

ـ ولمـه ؟

ـ إنه .. إنه يؤذى المزروعات مثله مثل (حامول البرسيم) ..

وبدأنا نحرق هذا الشيء المقزز ، وتكرر مشهد البذور الذهبية الباقية من احتراق النبات .. لكننى فى هذه المرة كنت حذرًا ، فاحتفظت بها كى أدفنها بنفسى (هذا بالطبع إذا لم أقم بزرعها عند أول سهو) ..

وحين عدت لدارى أخيرًا كنت قد بدأت أفهم أبعاد الكابوس ..

★ ★ ★

الخميس الكبير للمرحومة أمى ..

العادات المقدسة فى الريف .. السلال الملأى بفطير الرحمة .. والمقرئون القابعون فى المقابر ينتظرون قدومنا كى ينقضوا علينا كالذباب ليقرأ كل منهم ما يحفظ من قرآن مقابل فطيرة ..

أنا لا أتحذلق .. لكنى أعتقد أن قراءتى سورة (يس) الحبيبة بصوت خفيض دامع عند قبر أمى هى أبرك وأقرب إلى التقوى من كل هؤلاء المتطفلين بقراءتهم المملوءة بأخطاء التجويد ..

كانت نساء الأسرة يرتدين السواد والدموع ، وجوّ الصباح الندى يبلل النباتات المحيطة بالقبر ..

وكنت شاردًا بعينى بين تضاريس اللون الأخضر حين......

حين رأيت أوراق (موكاسا) اللعينة تتراقص بين الأوراق الخضراء الأخرى !.. ببراءة تتراقص .. بجذل تتراقص .. كأنها ـ الشيطانة ـ مجرد نبات برىء آخر له حق التمتع بالضوء والنسيم !..

لقد صار الأمر مملًا .. مملًا إلى درجة الابتذال ..

ولم يكن باستطاعتى بالطبع انتزاع النباتات من على القبور ، لأن هذه فى عرف الريف جريمة لا تغتفر خاصة

وأنهم لا يعلمون أن هذه النباتات تتغذى هنا على رصيد لا ينفد من الـ (نتروجين) !

لكننى قررت أن الوقت قد حان لتقديم إنذار جماعى .. صحيح أنهم لن يصدقونى وسأبدو لهم مجنونًا أو متحذلقًا .. لكننى ـ لو أحسنت اختيار أسلوبى ـ سأنجح فى إفزاعهم إلى حدٍ ما ..

وكان موعدى بعد صلاة الجمعة فى مسجد القرية ..

بضع همسات مع الشيخ (زيدان) إمام المسجد .. ثم إنه أهاب بالقوم أن ينتظروا قليلًا لأن لدىّ ما أرغب فى قوله ، وكان بعضهم بالفعل قد حمل نعليه وكاد يسابق الريح لولا أن أثارت الدعوة فضوله ..

ـ يا إخوان .. الدكتور (رفعت) ابن الحاج (إسماعيل) ابن القرية ولديه ما يريد إخباركم به .. فهلا جلستم وانصتم ؟

تركزت العيون علىّ فابتلعت ريقى .. زاوية فمى اليسرى ترتجف رغمًا عنى كعادتى حين أحاول ممارسة الخطابة التى لم أجدها يومًا ..

تماسكت وفتحت لفافة أحملها من ورق الصحف .. وأخرجت منها النبات الأسود المشئوم .. وأمام العيون المتشككة رفعته ..

بصوت متهدج فى البدء هتفت :
- هذا النبات الغريب .. هل منكم من وجده فى أرضه ؟
تعالى صوت من الصف الأخير :
- نعم .. وجدته عندى ..
صوت آخر غليظ :
- وأنـا ..
صوت مبحوح خائف ..
- وأنـا ..
- وأنـا ..
- وجدته منذ ثلاثة أيام ..
- أربعة ..
قاطعت الأصوات رافعًا صوتى ليخترق الأسماع :
- اسمعونى يا إخوان .. هذا النبات ضار بالصحة ويسمّم الأرض والبهائم .. لهذا أرجوكم .. على كل من يجده عنده أن يقتلعه ويجلبه لى لأقوم بإعدامه بطريقة نعرفها نحن ..
تساءل أحدهم فى شك خبيث :
- إذا كان كذلك .. لماذا لم تبلغنا (الزراعة) بذلك ؟.. ولماذا لم تبلغها أنت ؟
رددت فى نفاد صبر (فأنا لا أحب الذكاء فى غير موضعه) :

- لأن الوقت لا يسمح بذلك .. نحن فى خطر داهم وما لم تصدقونى فإن مواشيكم ستهلك وأطفالكم سيمرضون ..
- فأل الله ولا فألك !
تنحنح الإمام فى وقار .. وأمّن على كلماتى داعيًا القوم إلى الاستجابة .. وإلى إحضار نباتاتهم لى فى الدار .. ثم دعا لهم وترك لهم حرية الانصراف ..
فما أن خرجت من المسجد - مع (رضا) و (طلعت) - حتى قابلت مأمور المركز صديقى العتيد الذى عانقنى بحرارة .. ثم هتف مستنكرًا :
- ما هذا الذى قلته يا (رفعت) ؟
- قلت ما أخشاه ..
- لكنك بهذا تحدث ذعرًا .. وما دام لم يصلنا شىء من الوزارة - وما دمت أنت لم تبلغها بشىء - فليس من حقك أن تعطى إنذارات ..
وضعت يدى على كتفه محاولًا إشعاره بخطورة ما أقول ؟
- اسمعنى يا عزيزى .. إن (البيروقراطية) المصرية هى بناء شامخ من أيام الكاتب المصرى الجالس القرفصاء وحتى اليوم .. وليس لدىّ وقت ولا عمر يسمح لى بمواجهتها .. لقد اخترت الحل الأسرع وأعتقد أن جزءًا

كبيرًا من العبء سيقع على كاهلك لأنى عائد للقاهرة اليوم ..

ـ تشعل النار وتتركنى أطفئها وحدى ؟!

ـ لا بد لى من ذلك .. إن الرجل الذى بدأ هذا الكابوس موجود فى القاهرة .. ولابد أنه يملك مفتاح إنهائه ..

ـ ترحل هكذا سريعًا ؟

ـ إن لى عشرة أيام فى القرية .. وقد هدأت النفوس أخيرًا ..

ـ ولن تحكى لى تفاصيل ما قلته فى المسجد ؟

ـ فيما بعد يا صديقى العزيز .. فيما بعد .. فقط أوصى الخفراء أن يفتشوا المزروعات جيدًا بحثًا عن هذا النبات ذى الأوراق السوداء وقُل لهم أنه نوع من المخدرات ليبحثوا عنه فى جدية .. فإذا ما جمعت كمية كبيرة منه عليك بدفنها فى أعمق حفرة ممكنة بعد أن تغلفها بالقصدير أو تضعها فى صفائح مغلقة ..

كان رأسه مفعمًا بالأسئلة ، لكننى لم أعطه فرصة ، ولعل غموض الطب والكهنوت المحيط به هما من يحميان الطبيب من الفضول الزائد .. فقد قال لنفسه أن النبات سامّ وهذا كاف فلا داعى للمزيد من الاستيضاح ..

وفى المساء ركبت سيارتى عائدًا إلى القاهرة تاركًا الكارثة التى جلبتها للقرية كى تتولى الأقدار علاجها ..

★ ★ ★

كان كل شىء فى شقة (الدقى) كما تركته حين تلقيت المكالمة اللعينة .. فقط كان هناك خطابان فى صندوق البريد من أشخاص لا أذكرهم يلوموننى على أشياء لا أذكر أننى فعلتها .. كما كان هناك حشد من برقيات التعزية استلمها جارى (عزت) نيابة عنى، وكلها من أشخاص يزعمون أنهم (يشاطروننى الأحزان) على وفاة أمى فلاحة (كفر بدر) التى لم يرها أحدهم ..

لحسن الحظ أن جهاز الرد على المكالمات لم يكن معروفًا وقتها وإلا لقضيت ساعتين أصغى إلى هراء ..

استبدلت ثيابى بثياب غير ملوثة بالعرق .. وفتحت الكيس الذى أصرّت (رتيبة) على أن أحمله معى .. وبالطبع كان يحوى بعض الفطير (المشلتت) والجبن المملح .. ثم البطة .. البطة العتيدة الأبدية التى لا بد لمن يعود من زيارة أهله بالريف أن يحملها ..

لا بأس .. لا بأس على الإطلاق ..

ليذهب (الكوليسترول) إلى الجحيم، هو ونصائح د. (عزام) أخصائى أمراض القلب الذى يعالجنى .. ولئن

فقتلتنى الذبحة الصدرية فلأذهبن إلى القبر حاملاً بطة فى شرايينى التاجية ..

جلست إلى المائدة ألتهم البطة عازمًا على أن أترك أكثرها لغداء باكر .. ، وعازمًا على أن أتصل بـ (عماد) بمجرد أن أغسل يدىّ ..

ثم إننى نهضت إلى الهاتف وطلبت رقمه ..

صوت الرنين المتقطع .. دون ردّ ..

حقًا لا ردّ ..

إذن سأحاول الاتصال به غدًا ..

أما الآن فالنوم ولا شىء سواه .. ولا بأس بتفاحة قبله ..

دخلت غرفة النوم .. بدأت استبدل ثيابى متذمرًا من رائحة الجو الخانقة التى سببتها الحاجة للتهوية .. اتجهت إلى مصراعى الباب المطلّ على الشرفة وفتحتهما لأسمح لهواء الليل العذب بالدخول ..

غريبة هذه الرائحة .. أكاد أقسم أننى شممتها فى مكان ما ..

ما علينا .. وضعت التفاحة والسكين جوار الفراش فقد فقدت شهيتى ..

أطفأت الأنوار وتمددت فى الفراش شاعرًا به يعلو ويهبط من الإرهاق ورحلة السيارة الطويلة ..

ذكريات النهار تتوالى على شاشة العرض السوداء المعلقة فى فراغ الغرفة ..

ومن الغريب أننى لم أستطع النوم ..

ذلك الهاجس العجيب ـ الذى رافقنى فى كل حكاياتى ـ يهزنى وينهانى عن الاستسلام للنعاس :

ـ لا تنم !.. لا تنم !..

ـ ولماذا أيها المزعج ؟

ـ لأنك لو نمت .. لا أدرى بالضبط .. لكن لا تنم !.. إبق متيقظًا بضع دقائق فقط ..

وهنا .....

فى البدء ظننتها ذبابة .. ثم صارت اللمسة الباردة أكثر ثقة واسترخاء حول عنقى فحسبتها سحلية تسللت بشكل ما إلى فراشى .. اقشعر جسدى ومددت يدى إلى عنقى لأبعد هذا الشىء البشع ..

وهنا ازداد الشىء تشبثًا .. وشعرت بوخزات فى عنقى ، فأدركت الحقيقة المروعة فى لمح البصر .. ونهضت من رقدتى كمن مسه تيار كهربى ..

كانت ذراع نبات الـ (موكاسا) تنسل من الشرفة قاصدة فراشى ..

وفى هذه اللحظة بالذات كانت ملتفة حول عنقى فى تصميم !..

....

* * *

٨ ـ زائد عن الحاجة ..

قال لى د. (لوسيفر) وهو يتأمل أوراق (التاروت) شارداً :

ـ « إن اللعبة معك يا د. (رفعت) ستكون سهلة جدًا .. فأنت كهل وتعيش وحيدًا .. وضع ألف خط تحت كلمة (وحيدًا) هذه .. إنك لرجل مثقف وتعرف كل الأشياء غير السارة التى قد تحدث لكهل وحيد .. مثلك يا طبيبى العزيز ! » .

من قصة (الأوراق المشئومة)
الكتيب رقم (٢٠)

* * *

هل صرخت ؟

لا أذكر بالضبط .. ربما قد فعلت ..

كل ما أذكره هو قرص (المنبه) الفوسفورى يشير فى الظلام إلى أن الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ..

كنت غارقًا فى العرق البارد أحاول بعنف انتزاع عنقى من الذراع الأخطبوطى ..

الأسوأ هو أننى كنت أعرف أن كل دقيقة تمرّ تملأ دمى بالمزيد من ذلك السمّ النباتي الشبيه بـ (الكورار) .. وهذه المرة لن أجد من يحقننى بالـ (نيوستجمين) بل سأصير خرقة لينة يفعل بها النبات ما يشاء ..

هل هو كابوس ؟..

إن التهام البط على العشاء خطأ قاتل .. لكن لا .. هذا الذراع حقيقى ووخزاته حق لا مراء فيه .. فليس من الحكمة أن أقنع نفسى أنه كابوس ..

وهنا تذكرت ..

التفاحة والسكين جوار الفراش على (الكومودينو) حيث تركتهما .. إذن سأمدّ يدى لألتقط السكين .. ها هو ذا .. لا وقت للخطأ ..

وبيدٍ مرتجفة مددتُ يدى نحو الذراع ..

إنه قاس صلب لكنى ـ كذلك ـ قاس صلب ..

هان !.. هان !.. السكين تحشّ النسيج النباتى فى قسوة .. والآن ها هو ذا يتمزق .. بلين .. يتراخى حول عنقى ..

مددت يدى وانتزعته من حول عنقى .. ثم أضأت الأباجورة ، فوجدت باقى الذراع المقطوع يتلوى محاولًا الوصول إلىّ لولا طول المسافة ..

ـ أيها الشيطان !!



إذن سأمدّ يدى لألتقط السكين .. هاهوذا .. لاوقت للخطأ ..
ومددتُ يدى المرتجفة نحو الذراع ..

لكنى اطمأننت حين وجدت أن هذا الجزء لا يحوى ممصات .. فقد تركها كلها فى الجزء الذى قمت ببتره ..

نهضت من الفراش راجف القدمين وهرعت إلى زجاجة الـ (نيتروجلسرين) الحبيبة فدسست قرصًا تحت لسانى .. ثم أضأت نور الغرفة وخرجت إلى الشرفة غير عابئ بالذراع الذى أخذ يتحسس كاحلى فى جشع ويحاول تسلق سروال منامتى ..

وفى الشرفة وجدت الأصيص ..

أصيصًا كبير الحجم به نبتة يتجاوز ارتفاعها مترًا من الـ (موكاسا) ..

ومن الواضح تمامًا أننى من وضع هذا الأصيص هنا ثم نسيت كل شىء عنه .. لقد فعلت هذا قبل سفرى بالتأكيد ضمن حملة (نشر النبات) التى تزعمتها رغمًا عنى .. وكاد هذا يكلفنى حياتى ..

لقد وصل الـ (موكاسا) إلى غرفة نومى إذن ..

قمت باقتلاعه من جذوره ثم حملته فى اشمئزاز - وهو يتلوى بتلك الحركة المتشنجة التي يتحرك بها ذيل سحلية بعد بتره - إلى غرفة مكتبى وأضأت الأباجورة وبدأت أتأمله بدقة للمرة الأولى ..

كان قبيحًا لا شك فى هذا ..

ساق حمراء غليظة تخرج منها أوراق سوداء ذات حواف حمراء تجللها الأشواك .. بعض الفروع يحمل ثمرة صغيرة حمراء اللون بها تلك البذور الذهبية العجيبة .. وبعضها يحمل زهورًا - غريب هذا - حمراء اللون ..

حاولت استعادة معلوماتى التشريحية عن (الطلع) و (المتك) و (الأسدية) لكنى لم أميز أيًا منها فى هذه الزهرة .. وكانت لها رائحة النبات المميزة ..

أما أغرب ما وجدت فهو أن الذراع الذى يجذب الضحية مستقر بشكل زنبرك فى تجويف بمقدمة الساق ، وبالتالى يستطيع الانفلات فى أية لحظة نحو الضحية ..

كان مقطعه العرضى مستديرًا يحوى ثقبين - أدركت أنهما يمثلان قناتين واحدة منهما يحقن الـ (كورار) عبرها ، وواحدة تمتص الدماء عائدة للنبات ..

إنه لتركيب مذهل .. ومذهل هى أقل كلمة يوصف بها ..

الحق أن (عماد) قد وجد ضالته المنشودة .. الحلم الذى روى نهمه الدائم إلى المعرفة .. إن روحه الجشعة التواقة إلى التميز قد نجحت فى أن تضيف كابوسًا من نوع جديد إلى كل كوابيس الحياة ..

أما الأكثر هولًا فى هذا النبات فهو قدرته ـ غير المسبوقة ـ على التفكير .. والتخطيط .. والكذب !.. نعم الكذب ..

لقد نجح فى أن يتظاهر أمام (عماد) بأنه غير مفترس ، ولم يتمكن (عماد) من تصوير الفيلم الذى رأيته إلا بعد أن ترك النبات وحيدًا ..

حتى حين اكتشف أهل الطفلة اختفاءها .. ماذا وجدوا ؟.. وجدوها راقدة شبه ميتة جوار نبات مسالم برىء المنظر ..

نبات يقنع كل من يتعامل معه بأن يبذر بذوره خلسة .. بل ويوحى له أن الطريقة المثلى للزراعة هى دفن حيوان صغير تحت الجذور ..

نبات يعرف أن طريقته الوحيدة للاستمرار هى الحفاظ على (عماد) لهذا لم يهاجمه ولم يؤذه بعد كل هذه الأعوام ..

نبات ينتظر حتى تنام الضحية أو ينتظر حتى تكون الضحية بلا حول ولا قوة مثل تلك الطفلة البائسة ..

★ ★ ★

وهكذا أثبت النبات أنه يقف بالفعل عند مكان فاصل بين المملكتين الحيوانية والنباتية ..

★ ★ ★

لم أنم ليلتها ..

ظللت أفتش الشقة باحثًا عن نبات وضعته هنا أو هناك .. وبالفعل وجدت أصيصًا فى (السندرة) بدأ الكابوس ينمو فيه ..

لما كان هذا النبات لا يعتمد على (الكلوروفيل) فسيّان عنده إن كانت البيئة مشمسة أو مظلمة .. فهو لا يحتاج النور أساسًا ..

وفى الصباح الباكر أدرت قرص الهاتف طالبًا (عماد) ..

لقد حان الوقت لإنهاء هذه المهزلة ..

إن هذا النبات أخطر بالفعل من كل فائدة قد يقدمها للعلم .. يُقال اليوم ـ عام ١٩٩٣ ـ إن فيروس فقدان المناعة المسبب لمرض (الإيدز) قد وُلد فى أحد المعامل وفرّ منه .. لو كان هذا صحيحًا فإن العالم الذى أوجده لم يقدم خدمة كبيرة للبشرية .. وبالتأكيد لم يقدم (الديناميت) أو (القنبلة الهيدروجينية) أو غاز (السارين) أية خدمة للبشرية مهما كانت عبقرية مكتشفيها ..

الجرس يرنّ دون انقطاع .. ولا إجابة ..

إن (عماد) لا يذهب إلى أى مكان .. على الأقل فى السادسة والنصف صباحًا ، ومعنى هذا أن هناك كارثة ما ..

ارتديت ثيابى ملهوفًا وركضت إلى السيارة منطلقًا إلى (الزمالك) ..

(الفيللا) تجثم فى ضوء النهار المبكر كقصة مفزعة على رفّ مكتبة تدعونى إلى أن أفتحها وأقرأها رغم توجسى منها ..

كانت البوابة مغلقة بالجنزير ، من ثم هرعت إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لها حيث يقيم البواب ، وأوسعت الباب ركلًا وضربًا حتى انفتح عن وجه البواب النوبى العجوز مرتديًا ثيابه الداخلية ، متذمرًا من كل هذه الضوضاء ..

ـ (عبد الودود) !.. افتح لى بوابة (الفيللا) .. إن (عماد بك) لا يردّ على الهاتف ويخيل لى أن شيئًا ما أصابه ..

ما كاد الرجل يسمع ما قلت حتى هرع ـ دون أن يرتدى جلبابه ـ إلى الجنزير ليفتحه بمفتاحه وهو يتمتم :

ـ رأيته بالأمس .. وكان على ما يُرام ..

ودلفنا من البوابة .. لحظة تردد عابرة وهو يفكر هل من حقه اجتياز الحديقة ؟.. لكننى كنت قد سبقته على كل حال ..

باب المنزل .. أوسعه ركلًا وضربًا .. ولا إجابة ..

ـ لا جدوى من كل هذا .. اسمع !.. هل معك مفتاح ؟

مدّ يده إلى جيب (الصديرى) الذى يرتديه وأخرج مفتاحًا صغيرًا أولجه فى قفل الباب فانفتح .. كان غير مغلق إلا باندفاع لسان كالون (اللاتش) ..

ركضنا إلى الداخل باحثين عن (عماد) فى كل ركن وكل غرفة :

ـ (عماد) !..

ـ (عماد بك) !

كانت أسطوانة (الجرامافون) تدور بلا انقطاع وقد* تآكلت الإبرة تقريبًا إذ انتهت الأسطوانة منذ زمن .. الأسطوانة التى تحمل صورة الكلب الذى يصغى لـ (جراموفون) آخر والمميزة لأسطوانات (صوت سيدة) ..

لقد كانت أسطوانة (طائر النار) لـ (فاجنر) !..

ـ (عماد بك) !!

لم نجده فى أى مكان .. لكن مائدة الطعام كان عليها عشاء لم يؤكل بعد .. بالتأكيد هو عشاء لأنه أخفّ من أن يكون غداء وأكثر تنوعًا من أن يكون إفطارًا .. وكان الخبز غير طازج لكنه ـ بالتأكيد ـ غير متيبس .. أى أن هذه الوجبة لم يمرّ عليها أكثر من عشر ساعات ..

صعدت درجات قليلة إلى غرفة النوم التى جعل (عماد) مستواها أعلى قليلًا من باقى الحجرات .. وكان

الفراش مرتبًا نظيفًا .. ولم يفتنى أن أرى أن هناك ثلاثة أصص ملأى بالـ (موكاسا) متناثرة فى أركان الغرفة ..

الحمام أيضًا يحوى أصيصًا من النبات .. كذا غرفة المكتب .. غرفة المكتب التى ينتظر فيها مجهر صغير أنيق الشكل عليه شريحة زجاجية إلى جوار (أباجورة) مضاءة لتوفر مصدرًا للضوء ..

وجوار المجهر وجدت قلمًا وورقًا رُسمت عليه قطاعات نباتية عدة من الساق والأوراق والجذر ، مع أسهم كتبت عليها مصطلحات لاتينية لم أفهمها ..

كان (عماد) يقوم بتشريح النبات ثم أعد العشاء .. هذا هو ما يمكن استخلاصه من كل هذه الآثار ..

وجوار المجهر كان هناك مفكرة صغيرة مفتوحة وجوارها قلم حبر جاف .. وقد كتب فى الصفحة المفتوحة بخط واضح أنيق :

ـ لقد أفلت النبات منى !

عبارة غريبة .. لا أدرى لماذا ذكرتنى بما يكتبه ربانو السفن فى دفتر السفينة لحظة غرقها :

نحن نغرق .. فلتساعدنا السماء !

ما معنى أن النبات قد أفلت منه ؟..

نظرت إلى البواب الواقف خلفى زائغ العينين غير فاهم لشىء مما يحدث وأهبت به أن يواصل التفتيش .. أو على الأقل أن يفتش الحديقة جيدًا .. ، ثم شرعت أقلب المفكرة بحثًا عن تفسيرات فلم أجد شيئًا ..

مجرد مواعيد وملاحظات من نوع (البذور ـ عصام ـ معمل ـ تذكر) من التى يستحيل فهمهما إلا لمن كتبها ..

نزلت إلى الحديقة وبدأت أفتشها مع البواب .. كان نبات (موكاسا) الذى هاجمنى موجودًا فى مكانه ساكنًا يتظاهر بالبراءة .. مددت يدى فى قسوة إلى جذوره .. وبأعنف ما أستطيع انتزعتها ورميت به على الأرض فى اشمئزاز فتلوى بضع ثوان ثم همد تمامًا ..

لماذا فعلت ذلك ؟.. لا أدرى .. لكنه كان نذيرًا غامضًا بأن (عماد) لن يغضب على ما أصاب نباته بعد اليوم ..

سمعت صوت البواب ينادينى فهرعت إليه ..

ها هى ذى الصوبة الزجاجية وقد وقف جوارها يشير إليها فى توتر .. نظرت إلى كل هذه الفوضى .. الزجاج المهشم المتناثر على الأرض .. فتحة قطرها يقترب من المتر عبر جدار الصوبة .. وقد أطلت منها بعض النباتات التى بدأت بالفعل تلفظ أنفاسها لأنها لم تعتد الجو الخارجى ..



كان (الروب دى شامبر) على الأرض معجونًا بالدماء والتراب ..
وجواره نظارة مهشمة ..

قلبى يكاد يثب لفمى وأنا أدنو بحذر .. أقرب وجهى من الفتحة وأتشمم رائحة الرطوبة الخانقة بالداخل ، وبخار الماء الذى نفثته مسام الأوراق يتكاثف على الزجاج وينحدر للأرض على شكل قطرات ..

لكنى لم أجد جثثًا ..

لم أجد جثثًا ولم أجد أى نبات (موكاسا) بالداخل ..

فقط كانت هناك فوضى عامة وأصص مقلوبة وحفرة فى الأرض كأن هناك نباتًا قد اقتلع من هناك ..

لكن الزجاج مهشم للخارج كأن شخصًا كان حبيسًا بالداخل ثم نجح فى الخروج ..

هل هو (عماد) ؟.. هل سُجن بشكل أو آخر ثم نجح فى تحطيم الزجاج وتحرير نفسه ؟.. لا أدرى حقًا ..

★ ★ ★

وحين ناداني البواب العجوز ..

وحين سمعت نبرة صوته المذعورة وسعاله ..

عندئذ أدركت أنه وجده ..

★ ★ ★

كان (الروب دى شامبر) على الأرض معجونًا بالدماء والتراب .. وجواره نظارة مهشمة .. وقد تناثرت هنا وهناك خصلات من الشعر الأشيب الناعم ، وبقايا ممزقة

من منامة كان لونها أزرق ، وخفين تبعثرا هنا وهناك ، وسلسلة مفاتيح مدفونة فى التراب ..

ولم يكن هناك (عماد) ولا نبات ..

★ ★ ★

رأيت هذا المشهد فى كوابيسى مرارًا ..

★ ★ ★

هل تحب (فاجنر) ؟!..

★ ★ ★

زائد عن الحاجة !..

لقد صار (عماد) بالنسبة للنباتات زائدًا عن الحاجة لهذا قتله ..

إن منطق النبات (البراجماتى) النفعى لا يتزحزح .. فأنا قد قمت بزراعة البذور فى دارى وفى قريتى ، وبالتالى صار هناك أكثر من أب لهذا النبات ، كلهم عاكفون على بذر البذور ورعايتها ..

لهذا ـ ولهذا فقط ـ صار (عماد) زائدًا عن الحاجة ، والاستفادة المثلى منه هي التهامه ..

لو كان هذا النبات رجل أعمال لغدا مليارديرًا منذ زمن .. ولو كان صحفيًا لغدا رئيس تحرير عشرات الصحف واسعة الانتشار .. ولو كان سياسيًا لحكم العالم فى غضون شهور ..

لكنه مجرد نبات ..

ولأنه مجرد نبات يجب أن يُدمَّر ويُحرق فى الحال ..

★ ★ ★

كان العجوز مستندًا إلى شجرة يسعل باستمرار .. باستمرار ، وصعوبة التنفس تتزايد ، فأدركت أنه ـ ذلك الأحمق ـ أصيب بنوبة قلبية ..

أجلسته على الأرض وأحضرت له كوبًا من الماء من داخل المنزل ، مع قرصين من (النيتروجلسرين) يضع أحدهما تحت لسانه .. ثم بدأت أتفحص المكان حول ما تبقى من (عماد) ..

قد يتهمنى أحدكم بالقسوة لأننى لم أنهر ولم أبك بعد ما فقدت صديقًا مخلصًا نقيًا بهذه الطريقة الغادرة ، لكننى أقول لكم أننى رأيت مصائب كثيرة فى حياتى بحيث سئمت كل هذه الأشياء التى يفعلونها ويقولونها فى تلك المواقف ..

الدموع وعبارات الرثاء بلهاء ومبتذلة أكثر من اللازم ولا تضيف جديدًا .. إن الخدمة الوحيدة التى يحتاج إليها (عماد) الآن هى طلب الرحمة له .. وتدمير هذا النبات مع الاحتفاظ بعينة واحدة منه أرسلها هى والدراسات التى كتبتها عنه إلى مجلة (بوتانى) العلمية الرصينة ، مع

اقتراح مهذب بتسمية هذا النبات الجديد (إيمادللا نيجرا) أو أى اسم قريب من اسم الشهيد الذى اكتشفه ..

وهنا قطع علىّ أفكارى خاطر غريب ..

لماذا لا أجد أثرًا للنبات جوار (عماد) ؟!

إن حالته لا تسمح له بالزحف بعيدًا عن النبات قطعًا .. وكان الواجب أن أجده بين الأوراق الشوكية السوداء كما بدا ذلك الأرنب بعد التهامه ..

ولكن ما معنى هذا ؟......

١ - الصوبة تهشم زجاجها للخارج .

٢ - يوجد بالصوبة أثر يوحى أن نباتًا قد اقتلع من جذوره ..

٣ - لا يوجد نبات جوار جثة (عماد) ..

٤ - آخر كلمة كتبها (عماد) هى : « لقد أفلت النبات منى .. » ..

ألا يعنى كل هذا شيئًا ما ؟!..

★ ★ ★

يا للكارثة !..

لقد فهمت !..

★ ★ ★

٩ - عصر الـ (موكاسا) ..

لم يكن نباتًا !

بالتأكيد لم يكن نباتًا ..

صحيح أنه يتكاثر بالبذور .. وله ساق وأوراق وجذور ، لكنه يخطط .. ويفكر .. ويتظاهر .. بل ويتنقل !.. نعم يتنقل !..

أكاد فى هذه اللحظة أرى ما حدث بالضبط .. (عماد) بعد العشاء ويصغى الى (فاجنر) مرتديًا (الروب دى شامبر) - (عماد) وليس (فاجنر) طبعًا - وإذا به يسمع صوت زجاج يتحطم فيهرع إلى الحديقة ليجد الصوبة مهشمة والنبات غير موجود بها .. ، يعود مفزوعًا إلى غرفة المكتب ليخط هذه العبارة : « لقد أفلت النبات منى .. » ..

ولم يكن بالطبع يعنى أى شىء سوى ما قاله حرفيًا ..

لا تتحمل العبارة أى معنى مجازى مثل أن النبات يتصرف بطريقة غير متوقعة أو أى شىء من هذا القبيل .. ثم أن (عماد) يهرع إلى الحديقة ليرى أين ذهب هذا الوغد ..

لكن الـ (موكاسا) كان ينتظره فى الظلام.. هذه المرة

حرًا من قيوده حرًا من الجذور التى تقيده للأرض، وكانت المجزرة..

والأسوأ هو أن (عماد) لم يصدق حتى اللحظة الأخيرة أن نباته الحبيب يمكن أن يفعل معه كل هذا ..

★ ★ ★

دخلت إلى (الفيللا) متجهًا إلى الدولاب باحثًا عن بكرات الأفلام التى تضمها المجموعة (كان المفتاح معى هذه المرة بعد أن وجدته فى حاجيات المرحوم) ..

وكانت هناك بطاقة ملصقة على كل بكرة تدل على محتوياتها ..

(هامبورج) .. (الأقصر) .. (هالة) ـ بالتأكيد هذا الفيلم الأخير خاص جدًا ـ ثم (موكاسا ـ ١) .. (موكاسا ـ ٢) .. (موكاسا ـ ٣) ..

أخرجت آلة العرض السينمائى وعبأت البكرة (موكاسا ـ ٣) عليها لأنها بالتأكيد تحوى آخر ما عرفه عن النبات .. يهمنى قطعًا أن أعرف ما أخفاه (عماد) علىّ ليلة أن عرض علىّ الفيلم الأول ..

وفى الظلام بدأ الشعاع يتسرب إلى الحائط الأبيض .. كان الفيلم ملونًا هذه المرة ..

وتبينت ملامح الصوبة الزجاجية بما فيها من نباتات عملاقة .. ثم رأيت نبات (موكاسا) فى منتصف الكادر .. نباتًا عملاقًا يقارب طوله المترين ..

ومرت دقائق دون أن يحدث شىء ..

وفجأة بدأ النبات يتحرك .. يتلوى .. يرتجف ..

لم أصدق ما أراه لكنى واثق تمامًا من أنه حقيقى .. هو ذا النبات ينتزع نفسه من جذوره .. الجذور تخرج نفسها من التربة بكل براعة .. ثم يسقط النبات على جانبه ويبدأ فى الزحف ـ نعم الزحف ـ ببطء شديد على الأرض وكل أوراقه تتحرك .. تفتح وتغلق بشكل ميكانيكى مروع ..

يدور فى المكان دورة أو دورتين ..

ثم ها هو ذا يعود إلى مكانه ببطء شديد .. تثبت الجذور نفسها فى الأرض .. ثم يستقيم النبات على ساقه فى تؤدة .. ويعود مجرد نبات برىء آخر !..

انتهى الفيلم ..

ظللت أحدق فى الجدار المضىء زائغ العينين شارد الذهن .

إذن كان (عماد) يعرف .. وأخفى ذلك عنى ..

والسؤال الآن هو : هل كل نباتات الـ (موكاسا) تفعل ذلك ؟ أم أن هذا النبات الذى تربّى فى الصوبة هو الوحيد

القادر على ذلك ؟.. أميل إلى القول إن النبات يحتاج إلى فترة لا بأس بها من النمو والنضج حتى يبدأ فى (التقاط رزقه) .. فلا ينتظر حتى يأتيه (النتروجين) بل يذهب هو للبحث عنه !

المشكلة أن هذا يجعله خطرًا جسيمًا .. فمن منا يشك فى نبات مقتلع من جذوره ومُلقى على الأرض ؟

وتخيلت ما سأقوله لرجال الشرطة :

- إن هناك نباتًا هاربًا مسعورًا .. يجب أن تجدوه قبل أن يفترس أحدًا !!

إنه لأمر مضحك .. ولكن شرّ البلية ما يضحك ..

★ ★ ★

خرجت من المنزل لأجد البواب مرتكنًا إلى إحدى الأشجار ووجهه الأسمر كوجه جثة مضى على وفاتها ساعتان ..

لم أر من المناسب قط أن أسأله عما إذا كان قد رأى نباتًا مسعورًا يتسلق السور ، ولم يبدُ لى هذا محببًا ..

ساعدته على النهوض .. وطلبت منه أن يعود لامرأته على حين أطلب رجال الشرطة بالهاتف ، فأصرّ على أن يفعل ذلك بنفسه .. وأخذ يولول - ليس على (عماد) طبعًا - على المصير الأسود الذى ينتظره هو وامرأته بعد وفاة الـ (بك) ، وعمن ستؤول له (الفيللا) ..

وراح يتصور منظره وهو يتسوّل جوار المساجد من أجل شراء الدواء لها ..

هكذا شرع (يعدد) كلما أدار رقمًا على القرص ..

وهنا سمعنا الصرخة .. من بعيد لكنها واضحة ..

تبادلنا النظرات لثوان .. وخطرت لنا نفس الفكرة فى ذات اللحظة :

- زوجتك !

- إن الباب مفتوح .. لقد تركته مفتوحًا ..

- يا لك من أحمق !.. فلنسرع ..

طبعًا لا داعى للقول بأن العبارتين الأخيرتين قيلتا ونحن فى منتصف الطريق إلى باب الحديقة ، وبعد ثانية كنا داخل الحجرة الضيقة ..

كان المشهد مروعًا ..

العجوز مستلقية على الفراش تولول عاجزة عن الحركة فى حين يلتف الذراع المشنوم حول ساقيها .. كانت شبه مشلولة بفعل المرض - الشلل الرعاش كما تبين لى على الفور - لهذا اكتفت بالهلع ..

وعلى الأرض جوار الفراش المتآكل كان ذلك النبات المشئوم متمددًا بطول مترين أو يزيد .. وأوراقه السوداء الشوكية تنفتح وتنغلق فى جشع ..

ـ بسم الله الرحمن الرحيم !

صاح البواب فى هلع ، وبدا أن النوبة القلبية ستعاوده .. أما أنا فلم يكن عندى وقت لهذا الترف ـ ترف النوبات القلبية ـ لهذا هرعت إلى سكين كبير فى ركن الغرفة ، وعدت راكضا إلى النبات وأمسكت بالذراع المتلوى وحززته بعنف وقسوة ..

لم ينزف شيئًا من الدماء ـ لحسن الحظ ـ لكن قطرات من سائل أعتقد أنه هو (الكورار) نفسه .. كان فى مرحلة الحقن ولم يصل لمرحلة الامتصاص بعد ..

وما أن انفصلت الأنسجة القاسية حتى التف الذراع حولى فى هذه المرة .. أنا لا أعرف شعور من يسقط فى قبضة ثعبان (البوا العاصرة) أو (الأصلة) لكنه بالتأكيد قريب من هذا ..

سقطت على الأرض بين الأوراق السوداء المشئومة فشعرت بها تطبق على ثيابى وما بدا من جسدى ، لكنى هذه المرة فريسة متيقظة لا مشلولة .. وبالتالى لست سهل الهضم أبدًا ..

لكن .. كيف يمكن قتل هذا النبات المتعصب ؟..

فى البدء كان قتله سهلًا باقتلاع جذوره ، أما وقد صار حرًا طليقًا فكيف يمكن قتله ؟

صحت بالبواب فى لهفة :

ـ (عبد الودود) !.. ساعدنى على إخراج هذا الشيطان للخارج ..

تحامل الرجل على نفسه وساعدنى فى حمل النبات المتلوى إلى خارج الغرفة وهو يبسمل ويحوقل واثقًا من أن كل هذا سلوك جان شرير ..

ولم يفته أن يتأكد من أن المرأة لم تزل حية وتخلصت من الذراع المحيط بعنقها ..

فى الخارج ألقينا النبات على الأرض.. وصحت بالرجل :

ـ هلم .. هل لديك (كيروسين) هنا ؟

ـ أكيـد ..

وعاد لى حاملًا زجاجة متسخة مسدودة بورقة مبرومة كأنها قطعة فلين ، فبدأت أسكب منها على النبات المتشنج ، ثم أشعلت قطعة الورق بقداحتى ورميتها على النبات ، و ..

فهاااام !..

اندلعت النيران فهمدت حركة الشىء ..

بدأ يتفحم ثم يتحول إلى رماد ساخن .. المشهد الذى يذكرنى بمصرع (مصاص الدماء) فى نهايات أفلام الرعب ..

وحين تلاشت آخر جذوة لهب ، مددت بحذر يدى وسط الرماد ..

والتقطت عشرة من البذور الذهبية الشبيهة بالمعدن ..

لقد هلك الوغد ، لكنه ترك بذوره ليزرعها أحمق مثلى أو البواب ـ ليستمر الكابوس إلى الأبد ..

كنا نلهث .. والعرق يبلل ما تحت إبطينا وياقات ثيابنا ..

وكان ينتظر منى تفسيرًا لكل هذا ، لكنى لم أعطه له .. فقط همست بصوت مبحوح :

ـ يمكنك الآن أن تطلب الشرطة ..

★ ★ ★

لا جدوى .. جراحة فاشلة .. لقد ماتت المرحومة بعد ما ثقبنا (الأورطى) ..

★ ★ ★

أيًا ما كان موضوع هذا الكتاب ، فأنا مستعد لمناقشته معكما فورًا ..

★ ★ ★

ولو أن النجوم لدىّ مال نفت كفاى أكثرها انتقادا

★ ★ ★

هل تحبّ (فاجنر) ؟

★ ★ ★



تحامل الرجل على نفسه وساعدنى فى حمل النبات المطوى إلى خارج الغرفة ..

تصاعدت الأبخرة السامة - أبخرة السيانور - فى حديقة (الفيللا) على حين بدا المهندسون القادمون من وزارة الزراعة أقرب إلى كائنات المريخ منهم إلى البشر ، بثيابهم المعزولة وأقنعة الغازات المحكمة وعلى ظهر كل منهم خزان ثقيل متصل بخرطوم ينثر المادة المهلكة ، وكنا نحن واقفين على بعد كبير نرمق المشهد فى فضول ..

قال لى د. (صبحى) مدرس الصيدلة وهو يجفف عرقه :

- وهكذا ستتم عملية إبادة كاملة لهذا النبات .. ما دام يعتمد على مادة (الهيموجلوبين) فى حياته فإن (السيانور) سيؤدى الغرض تمامًا كما يفعل مع الحيوانات ..

نظرت له فى شرود .. وسألته مشعلًا سيجارتى الثالثة :

- هل بدأوا تطهير (كفر بدر) اليوم ؟

- يقول وكيل الوزارة أنهم بدأوا .. تم إخلاء البيوت ثم رشّ الحقول بالمادة القاتلة ..

- لن نتخلص من هذا التلوث قبل شهور ..

- للأسف نحن مضطرون .. إن النبات لم يبد استجابة لمركبات (الفوسفور) العضوى ولا (السيفين) ..

تساءلت وأنا أرمق الأبخرة المتصاعدة من بعيد :

- وهل ستموت البذور بنفس الطريقة ؟

- غالبًا .. وعلى العموم سيقومون بنقعها بعد ذلك فى حمض (النتريك) لمدة ثمان وأربعين ساعة ..

- يا للسماء !..

قلتها وأنا أقذف بعقب اللفافة بعيدًا ..

كل هذا المجهود للتخلص من الـ (موكاسا) !.. أى شيطان رجيم جاء به (عماد) إلى هذا العالم ؟!.. كأن البشرية شفيت من السرطان والجوع والتلوث البيئى كى نقدم لها نباتًا لا يموت إلا بـ (السيانور) !..

دنا منى البواب النوبى العجوز وهو ينهنه متهانفًا للبكاء ، فعانقته وربّت على كتفه .. سمعته يسعل ويدمدم :

- هل ترى يا (بك) ما فعلوه بحديقة (الفيللا) ؟.. ماكان (عماد بك) رحمه الله ليقبل بكل هذا ..

كان - البائس - يشعر أن واجبه لم ينته بعد نحو سيده حتى بعد وفاة هذا الأخير .. ولقد أثار هذا الإخلاص مدامعى لكنى تماسكت ..

وهنا شعرت بشىء صلب فى جيب جلباب الرجل .. فمددت يدى أتحسسه .. إننى أذكر هذا الملمس جيدًا ..

لا شك فى ذلك .. مددت إصبعين داخل الجيب وأخرجت بذرتين من البذور الذهبية المشئومة أمام عينى الرجل غير الفاهمتين !..

ستكون المهمة شاقة ..

شاقة حقًا ..

* * *

١٠ ـ خاتمة ..

كان حصار البذور مشكلة ..

فكل إنسان بدا وكأنه يتحين الفرصة ليسرق بعضها أو يخفيها فى جيبه ، ولقد اضطررنا إلى تفتيش جيوب وحاجيات كل من تعامل مع هذا النبات .. وكانت النتيجة ـ غالبًا ـ إيجابية ..

حتى أنا وجدتنى أخفى عشر بذور فى الدرج الذى أضع به مناديلى ..

ووجد د. (صبحى) بذرتين فى جوربه حين عاد لداره ..

كنا نتصرف كمدمنى المخدرات الذين تجد السموم فى كل مكان من عالمهم .. ولست مبالغًا فى هذا الوصف ..

لقد صار الـ (موكاسا) وباءً حقيقيًا .. وسيدًا على عشرات العبيد الذين لم يعرفوا ما حلّ بهم وبإرادتهم ..

لكن الحصار ـ أزعم ـ كان محكمًا ..

ولمدة شهور لم نسمع عن حادث هجوم واحد للنبات على إنسان .. ولم يبلغنا أحد بمشاهدة الأوراق السوداء المشئومة ..

لهذا - ولأول مرة - أعلن مسئولو وزارة الزراعة أن نبات (الموكاسا) قد اختفى من الوجود ، ذلك الاختفاء الذى لم يضايق أحدا .

ومن لغو القول أن أكرر أن تفاصيل هذا الحادث ظلت سرية تمامًا ، فلم يدر بها سوى حفنة من الرجال ، وأن من علموا طرفًا من القصة ظنوا الأمر يتعلق بحشرة ما أو وباء من أوبئة المزروعات ..

كنا فى ذروة الحرب النفسية مع (إسرائيل) فى تلك الآونة .. وكنا نعرف تمامًا أن هذه القصة ستتضخم وتنتفش - بفعل الإشاعات - وسيعتقد رجل الشارع أن (الموكاسا) سلاح بيولوجى توصل إليه العلماء الإسرائيليون وأدخلوه إلى البلاد ..

والواقع - أصارحك - أننى أسائل نفسى أحيانًا ..

إن العالم الذى قدم البذور إلى (عماد) هو عالم أمريكى اسمه (ديفيد أوبريان) .. إن (يهودية) الاسم لا تخفى على أحد ، وأنا قد تعلمت من زمن ألا أثق بأجنبى يدعى (ديفيد) أو (أبراهام) أو (ليفين) أو حتى (ساره) ..

فهل الأمر كذلك ؟

هل كان (أوبريان) يعرف حقيقة هذا النبات ؟

هل هذا النبات وليد معالجة إشعاعية أو كيميائية تمت فى أحد معامل الحرب البيولوجية ؟.. لا أظن .. ولا أحسب أنهم وصلوا إلى هذا القدر من التقدم التكنولوجى ..

الخلاصة أن التعتيم الإعلامى على الموضوع كان ضروريًا فى تلك الحقبة الكئيبة من تاريخ البلاد ..

لكن التعتيم الإعلامى لم يمنعنى من أن أقوم بواجبى الأخير نحو (عماد) - أرقى إنسان عرفته فى حياتى - لهذا تعاونت مع اثنين من زملائه فى الجامعة وقمنا بعمل ورقة علمية محكمة تبدأ بهذه السطور : إن لدينا من الأسباب ما يدفعنا للاعتقاد بوجود حلقة واصلة بين المملكتين الحيوانية والنباتية ......

وانتهت الورقة بجملة شديدة الأهمية عندى :

- وإننا لنقترح تسمية هذا النبات باسم (إيمادللا نيجرا) ، والمقطع الأول نسبة لاسم مستكشفه الذى فقد حياته ثمنًا لاكتشافه ، أما المقطع الثانى فيدل على لون أوراقه الأسود ..

وأرسلنا الورقة - مع الأفلام والرسوم التخطيطية ونموذجًا حيًا صغيرًا - إلى مجلة (بوتانى) عالمين أنها ستكون ضربة العصر .. ولقد نشرت المقالة ونالت إعجابًا علميًا هائلا وأثارت تساؤلات عديدة ، لكنها لم تصل للرأى

العام لأن الجمهور أكثر سطحية من أن يقرأ هذه المجلات العلمية المتعمقة ..

إنه نفس السبب الذى لأجله كتب (نيوتن) نظرياته باللاتينية التى يستحيل فهمها على هواة القشور .. كان يريد أن يريح ويستريح فلا يقرأ نظرياته إلا من يستحقون قراءتها !..

* * *

لقد مرّت أعوام طوال على هذه القصة ..

لكني ما زلت أجفل كلما شممت روائح معينة .. وما زلت أرى الأوراق السوداء فى كل مكان .. وما زلت أشعر بشيء يمشى فوق عنقى كلما جلست إلى مكتبى لأكتب ..

أومن أن كل هذه وساوس لكن الفكرة لا تبرح بالي ..

ثمة شخص فى مكان ما يحمل بذرة أو بذرتين ، وهو ما زال يذكر كيفية زراعتها وينتظر الفرصة المناسبة عندئذ يدسها فى التربة جوار جثة فأر أو عصفور ميت .. ثم تبدأ المأساة ..

لا بد أن هذا الشخص موجود ..

ومن يدرى ؟.. ربما كان أنا ..

أمس ابتعت بعض أصص النباتات المملوءة بالتربة ونصف كيلوجرام من اللحم المفروم لا أدرى لماذا ولا ما الذى أنتويه بالضبط !..

أنا لا أعرف ..

فهل تعرف أنت ؟..

* * *

فى القصة القادمة أستكمل معكم حكاية الكاهن الأخير .. رجل (النافاراى) الذى آويته فى دارى ، فجلب الوبال على الجميع .. ستكون قصة مشوقة من (دراما المكان الواحد) ، وستعرفون وقتها كيف أن العجوز (رفعت إسماعيل) لم ينته بعد ... و ...

لكن هذه قصة أخرى .

د. / رفعت إسماعيل

(القاهرة ـ ١٩٩٣)

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النبات

كلنا نحب النباتات ..
فهى مخلوقات جميلة هشة
بريئة ، والأهم أنها مسالمة .. لكن
هذا النبات يختلف .. إنه يفكر ..
يتحرك .. يخطط .. ويقتل: حقًا كلنا
نحب النباتات .. فهى مخلوقات
لاتؤذى . كلنا نحب النباتات ..
لكننا سنكون حذرين حين ننام
وهى معنا فى غرفة
واحدة!!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الدافاراى

الثمن ١,٢٥

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع